الفصل العشرون

الفلسفة الانجليزية

١٦٤٨ ــ ١٧١٥

١ ــ توماس هوبز : ١٥٨٨ ــ ١٦٧٩

١ ــ المؤثرات التى شكلت شخصيته :

ولد هوبز فى ٥ أبريل ١٥٨٨ ، ولما يكتمل المدة المقررة للحمل ، وتعزو أمه ولادته المبتسرة قبل الأوان الى فزعها من مجيء الأسطول الاسبانى « الأرمادا » ، ومن الخطر الذى يتهدد انجلترا بغزو ساحق على أيدى الوثنيين السفاحين . أما الفيلسوف فينسب الى خروجه غير المرتقب قبل الأوان الى الحياة نزعة الجبن التى تملكته وغلبت عليه ، ولكنه كان أجرأ الهراطقة فى عصره . وربما ورث الوالد ــ وكان قسيسا أنجليكانيا فى مامز برى فى ولتشير ــ ابنه بعض نزوع الى المشاكسة ، فان هذا الوالد اشتبك يوما فى شجار على باب كنيسته ثم اختفى ، تاركا أبناءه الثلاثة ليتولى تربيتهم أخ له .

وأثرى هذا الأخ وأيسر ، والتحق توماس بكلية مجدلن فى اكسفورد ، هيابا جبانا ، ولا ريب ، مثله فى ذلك مثل أى شاب يجرؤ على اقتحام المغارات المخصصة لأصنام العشيرة . ولم يجد فى الفلسفة التى تدرس هناك الا قليلا مما يروقه ، فتسلى بقراءات خارج المنهج المقرر ، وتعرف بطريق مباشر على الآداب الاغريقية واللاتينية . ولما تخرج فى سن العشرين أسعده الحظ ليكون معلما خاصا لوليم كافندش الذى أصبح أرل ديفونشير الثانى . وقد ثبت أن الحماية التى بسطتها عليه هذه الأسرة كانت ذات قيمة كبيرة له أيام هرطقته . وفى ١٦١٠ طاف فى صحبة تلميذه بأرجاء القارة . وعند عودته اشتغل لبعض الوقت سكرتيرا لفرنسيس بيكون ، وربما أسهمت هذه الخبرة المثيرة فى تكوين فلسفته التجريبية بكل ما فى هذه الكلمة من معنى . ويروى أوبرى أنه حوالى هذه الفترة « كان مستر بنجامين جونسون شاعر التاج صديقه الحميم الذى يكثر التردد عليه(١) وكان أغزر علما من هوبز . ولم

يكن قد أشتد عوده بعد ، وسرعان ما عاد هوبز الى أسرة كافندش ، واحتفظ بصلته بها طيلة ثلاثة أجيال ، ومن الجائز أن الفيلسوف اقتبس من هؤلاء الحماة الكرام ذوى المنعة والقوة الآراء المتعلقة بالنظام الملكى والكنيسة التقليدية ، وتلك الآراء هى التى غفرت له ميتافيزيقيته المادية وخلصته من الموت حرقا .

وكان اكتشافه لاقليدس نقطة تحول فى حياته العقلية . ذلك أنه وهو فى سن الأربعين ، وقع بصره فى مكتبة خاصة ، على كتاب « العناصر » مفتوحا على المسألة رقم ٤٧ من القسم الأول . وما أن قرأها حتى صاح « يا الهى ، هذا مستحيل » وأشار شرحها الى أنها برهان على مسألة سابقة ، وهذه على أخرى ، وهكذا ، حتى رجع الى التعاريف الأولية والبديهيات. وابتهجبهذا البناء المنطقى ، واغرم بعلمالهندسة (٢) ولكن أوبرى يضيف « أنه كان منصرفا ـ انصرافا كبيرا الى الموسيقى ومارس العزف على الكمان الكبير » . وفى ١٦٢٩ نشر ترجمة لتيوكيديدس (المؤرخ اليونانى فى القرن الرابع ق . م) وكان غرضه السافر المزعوم من ذلك هو أن يحذر انجلترا من أخطار الديموقراطية. وفى تلك السنة استأنف رحلاته ، معلما آنذاك لابن أول تلاميذه ، ارل ديفونشير الثالث . وربما قوت زيارته لجاليليو (١٦٣٦) من نزوعه الى تفسير الكون على أسس ميكانيكية .

وعاد الى انجلترا فى ١٦٣٧ ، ولما اشتد الصراع بين البرلمان والملك شارل الأول ، كتب رسالة بعنوان « مبادىء القانون الطبيعى والسياسي » ، دافع فيها عن السلطة المطلقة للملك ، بوصفها أمرا لا غنى عنه للنظام الاجتماعى والوحدة الوطنية . وجرى تداول هذه الرسالة مخطوطة ، وربما ـ كانت تؤدى الى القبض على المؤلف لولا أن شارل حل البرلمان . وعندما احتدم النزاع فقد رأى هوبز أنه من الحكمة أن يعود أدراجه الى القارة (١٦٤٠) ، وبقى هناك ، ومعظم وقته في باريس ، طيلة الأحد عشر عاما التالية . وفى باريس كسب صداقة مرسن وجاسندى ، ولكنه جلب على نفسه عداوة ديكارت . فان مرسن دعاه الى تدوين بعض التعليقات على « تأملات » ديكارت ، فاستجاب هوبز فى شيء من الكياسة ولكن فى كثير من الحدة ، ولم يغتفر له ديكارت هذا قط . وعندما نشبت الحرب الأهلية فى انجلترا

(١٦٤٢) أسس المهاجرون الملكيون لأنفسهم مستعمرة فى فرنسا ، وربما أخذ هوبز عنهم مزيدا من التعاطف مع الملكيـــة ، فانه لمـدة عامين (١٦٤٦ / ١٦٤٨) اشتغل بتدريس الرياضـــيات لأمير ويلز المنفى ، الملك شارل الثانى فيما بعد • وجاءت حركة الفروند ضد لويس الرابع عشر فى فرنسا ـ وكانت مثل الثورة فى انجلترا ، تهدف الى الحـــد من سلطة الملك ـ فأكدت اقتناعه بأن الملكية المطلقة وحدها هى التى يمكن أن تحافظ على الاستقرار والأمن الداخلى •

وفى بطء شديد وصل هوبز الى صياغة محددة واضـحة لفلسفته • ويقول أوبرى : « انه سار طويلا وأعمل الفكر وتأمل ، وكان فى رأس عصاه قلم ومحبرة ، وكان يحمل فى جيبه دائما كراســـة ، حتي اذا عرضت له فكرة ، فسرعان ما كان يدونها على الفور حتى لا تضيع (٣) » وأصدر سلسلة من التأليف الأقل قيمة × ، التى ليس لها الآن ذكـر ، ولكنه ـ فى ١٦٥١ جمع كل أفكاره فى كتاب يجمع بين طـرافة الفكر والأسلوب وعدم المبالاة ، هو « لواياثان » (التنين) أو « المـــادة والشكل » ، و « سلطة الدولة دينية ومدنية » (التنين) أو « المـادة فى تاريخ الفلسفة ، وجدير بنا أن نتوقف عنده فى شيء من التروى •

٣ ـ المنطق وعلم النفس :

يكاد دسلوب هوبز يقارب أسلوب بيكون فى الجودة ، ولكنه ليس غنيا بالصور الوضاءة مثله ، ولكنه قوى متميز فعال صريح مثله تماما ، مع شيء من التهكم اللاذع بين الحين والحين • وليس فيه زخـــرف ولا تظاهر بالبلاغة والفصاحة ، فما هو الا تعبير واضح عن فكر واضح، مع اقتصاد حكيم فى الوسائل اللفظية • يقول هـوبز « ان الكلمـــات بالنسبة للعقلاء ليست سوى أنضاد « فيشـــات » أى وسائط للعـــد

× أهمها « المواطن » (١٦٤٢ / ١٦٤٧) و « مبادىء القانون » الذى طبع ١٦٥٠ فى جزءين : « الطبيعة الانسانية » و « الهيئة السياسية » ، ومبادىء « الفلسفة » (١٦٥١) ، « الاصول الفلســـفية » ١٦٥٥ / ١٦٥٨ وهى ثلاثية استنباطية عن الجسم والانسان والمجتمع هذا الى جانب شـــذرات كثيرة فى الرياضيات ، وترجمة للالياذة والاوديسية • ثم « بهيموث » (١٦٧٠) وهو عبارة عن تاريخ الحرب الاهلية مفسرا على ضوء آرائه عن الانسان والمجتمع ، ثم تاريخ حياته شعرا باللاتينية •

والحساب ، ولكنها ثروة الأغبياء ، التى تضفى عليهم قيمة وقــدرا ، استنادا الى أرسطو أو شيشرون أو توما الأكوينى(٤) » • وبهذا السلاح الجديد ـ قضي هوبز على كثير من الكلام الطنان الرنان الأجوف الذى لا يحمل معنى • وعندما وقع بصره على تعريف توما الأكوينى «للأبدية» بأنها « الحاضر الخالد » هم كتفيه استهجانا لهــذا التعريف على أنه « من اليسيط جدا أن يقال ، ولكن على الرغم من أنى قد أسر به ، فانى لم أستطع أن أفهمه قط ، وأولئك الذين يستطيعون فهمه أسـعد منى حظا » • وعلى ذلك كان هوبز « اسميا صريحا » (مذهب الاسمين : مذهب فلسفى يقول بأن المفاهيم المجردة أو الكليات ليس لها وجـود حقيقى ، وأنها مجرد اسماء ليس غير) : فالانماء أو الأسماء المجردة مثل « الرجل ، الفضيلة » هى مجرد أسماء لأفكار تعميمية ، ولا تمثل شيئا مدركا بالحواس ، فكل الأشياء لها وجود فردى ـ أعمال فاضلة فردية ، ورجال فرديون •• ••

انه يحدد مصطلحاته وألفاظه تحديدا دقيقا • وعلى الصـفحة الأولى من كتابه يعرف « لواياثان » بأنه مصلحة مشتركة أو رابطة أو دولة • انه وجد اللفظ فى التوراه (سفر أيوب ـ الاصحاح ٤١) حيث استعملها الرب اسما لحيوان بحرى هائل غير ذى نوع محدد ، رمزا للقوة الالهية ، واقترح هوبز أن يجعل من الدولة نظاما ضخما عليه أن يستوعب كل النشاط الانسانى ويوجهه • ولكنه قبل أن يصل الى قضيته الأساسية ألقى نظرة شاملة على المنطق وعلم النفس بيد لا ترحم •

ان هوبز فهم الفلسفة على أنها ما نسميه الآن علما : « معـرفة الآثار والظواهر المكتسبة من معرفة الأسباب ، أو بالعكس معرفة العلل أو الأسباب الممكنة كما تدلنا عليها معرفة آثارها المعروفة لدينا (٥) » • وتبع بيكون فى توقعه أن يجنى من وراء هذه الدراسة أو هذا ـ المنهج فوائد عملية عظيمة للحياة الانسانية • ولكنه تجاهل دعوة بيكون الى التعليل الاستقرائى ، وأخذ « بالاستدلال المنطقى » أى الاستنتاج من التجربة • وفى اعجابه بالرياضيات أضاف « أن الاستدلال المنطقى هو بعينه مع الجمع والطرح » أى الجمع بين الصور والأفكار ، أو الفصـل بينهما • وذهب الى أننا لا نفتقر الى التجربة ، ولكن الذى نفتقر اليه هو التعليل الصحيح لها ، أننــا اذا اسـتطعنا أن نقضي على خبث

الألفاظ الخالية من المعنى فى الميتافيزيقا ، وعلى التحيزات التى نقلناها بحكم العادة أو التعليم أو روح التشيع والتحزب ، إننا اذا استطعنا هذا فأى عبء ثقيل نطرحه عن كواهلنا ، والعقل على أية حال ليس معصوما من الخطأ ! ولا يمكن الا فى الرياضيات ، أن يزودنا بالحقيقة اليقينية التى لا ريب فيها . « ان معرفة النتيجة ، التى قلت من قبل انها تسمى العلم ، ليست مطلقة ، بل هى مشروطة . ولا يستطيع أحد أن يعرف عن طريق التعليل أن هذا الشيء أو ذاك كان أو يكون أو سيكون ، مما يعرف بشكل مطلق ، بل يعرف أنه حين يكون هذا يكون ذاك ، واذا كان هذا كان ذاك ، وحين سيكون هذا سيكون ذاك ، أى أن هذا الشيء أو ذاك يعرف مشروطا » (٦) .

وكما سبقت هذه العبارة حجة هيوم فى أننا نعرف النتائج فقط دون الأسباب ، فان هوبز كذلك سبق لوك فى علم النفس الحسي . ان كل المعرفة تبدأ بالحس « ليس ثمة فكرة فى عقل الانسان الا تولدت بادىء ذي بدء ، تامة أو على دفعات ، فى أعضاء الحس (٧) » . وهذا علم نفس مادى صريح : لا يوجد شيء خارجنا أو داخلنا ـ الا المادة والحركة ، وكل الصفات محسوسة « أو حسية (الضوء ، اللون ، الشكل ، الصلابة ، النعومة ، الصوت ، الرائحة ، الطعم ، الحرارة البرودة ، هى فى الشيء الذى يسببها أو يحدثها ليست الا عدة حركات كثيرة للمادة تؤثر بها على أعضائنا باشكال مختلفة ، كما أنها ، فينا نحن الذين تاثرنا بها ، ليست الا حركات مختلفة ، لأن الحركة لا تنتج الا حركة (٨) » ، فالحركة فى شكل تغيير أمر ضرورى للحس ـ ان احساسك ـ بنفس الشيء دائما يساوى أنك لا تحس بشيء مطلقا (٩) . (وهكذا فان الرجل الأبيض أو الرجل الملون لا يتنبه أى منهما الى رائحته لأنها دائما تحت أنفه) .

ومن الحس يتابع هوبز سيره ليستلخص التصور والذاكرة عن طريق تطبيق فريد لما صار قانون الحركة الأول عند نيوتن :

انه اذا بقى جسم ساكنا ما لم يحركه شيء آخر ، فانه يظل ساكنا الى الأبد ، فتلك حقيقة لا يشك فيها أحد . أما اذا كان الجسم متحركا ، فانه يظل متحركا الى الأبد الا اذا أوقفه شيء آخر ، فانه على الرغم من أن

السبب واحد فى الحالين (وهو على التحديد أن أى شيء لا يمكنه التغيير بذاته) فهذا أمر لا يمكن التسليم به بسهولة ..

اذا تحرك الجسم مرة ، فانه يظل يتحرك الى الأبد (الا اذا عاق حركته شيء آخر) ، وهذا الذى يعطل حركته ، أيا كان ، لا يستطيع أن يعطلها دفعة واحدة انما يعطل حركته تماما فى الوقت المناسب وشيئا فشيئا . وكما نرى فى الماء ، فقد تسكن الريح ولكن الأمواج لا تهدأ الا بعد فترة طويلة من سكون الريح . وهذا ما يحدث للحركة التى تتم داخل الأجزاء الداخلية فى الانسان ، ثم حين يرى أو يحلم .. .. الخ . حيث أنه عندما يزول ويختفى الشيء أو تغلق العين ، فاننا نظل نستبقى صورة الأشياء التى رؤيت ، ولو أنها تكون أكثر غموضا منها حين كنا نراها . وهذا ما يسميه اللاتينيون « خيالا » .. .. وهو على هذا الأساس ليس الا « حسا يضعف » ، فاذا عبرنا عن هذا الضعف ، فما يدل على أن الحس يتضاءل وأنه قديم ، وأنه غابر ، فان هذا يسمى « الذاكرة » .. .. .. والذاكرة العامرة ، أو تذكر أشياء كثيرة يسمى « الخبرة أو التجربة (١٠) ».

والأفكار عبارة عن تصورات ينتجها الحس أو الذاكرة . والفكر هو نتيجة لمثل هذه التصورات . ولا تتحكم الارادة الحرة فى هذه النتيجة ، بل انها تخضع لقوانين ميكانيكية تحكم توارد الخواطر .

ان الأفكار أو الخواطر لا يعقب الواحد منها الآخر اعتباطا ، ولكن حيث اننا لا يكون لدينا تصور لما لم نكن قد أحسسنا به جملة أو تفصيلا من قبل ، فاننا كذلك لن ننتقل من تصور الى تصور ليس لدينا عهد به فى حواسنا من قبل . وهذا هو السبب : ان كل التصورات (الأخيلة والأفكار) انما هى حركات فى داخلنا ، وهى بقايا ما تم فى حواسنا . وهذه الحركات التى تعاقبت الواحدة منها بعد الأخرى فى الحس تستمر أيضا مجتمعة بعد الحس .. .. ولكن بما أنه فى الحس بالنسبة لشيء واحد بعينه يدرك ، قد يأتى أحيانا شيء . وأحيانا يأتى شيء آخر ، فقد يحدث عاجلا أو آجلا ، فى تصور شيء ما ، ألا نكون على يقين من أننا سنتصور شيئا بعده . وهذا مؤكدا فقط اذا كان ثمة شيء قد أعقب مثيلا له من قبل فى وقت من الأوقات (١١) .

. وقد تكون هذه السلسلة من الأفكار مشوشة أو غير موجهة ، كما

هو الحال فى الأحلام ، وقد تكون « مضبوطة أو محددة طبقا لرغبة أو هدف أو خطة ما » . وفى حالة الأحلام نجد أن الصور الساكنة الهاجعة فى المخ « توقظها وتهيجها أية اثارة فى الأجزاء الداخلية فى جسم الانسان » . لأن كل أجزاء الجسم مرتبطة ، بطريقة ما ، بأجزاء معينة فى المخ . « أعتقد أن هناك تبادلا فى الحركة من المخ الى الأجزاء الحيوية ، ومنها ثانية الى المخ ، بهذا لا يولد التصور حركة فى تلك الأجزاء فحسب ، بل ان الحركة فى تلك الأجزاء كذلك تولد تصورا شبيها بهذا الذى أنتجها (١٢) » . وأحلامنا هى شكل معكوس لتصوراتنا فى اليقظة : الحركة ونحن متيقظون بادئة بطرف ، وبادئة بالطرف الآخر حين نحلم(١٣) » والتسلسل غير المنطقى للصور فى الأحلام يرجع الى عدم وجود أى احساس خارجى يضبطها أو أى غرض يوجهها .

وليس للارادة الحرة أى مكان فى علم النفس عند هوبز . والارادة نفسها ليست موهبة أو وجودا مستقلا ، بل هى مجرد الرغبة الأخيرة أو النفور الأخير فى عملية التدبر (حركتان جسميتان أساسيتان هما الاشتهاء أو الحركة نحو الأشياء والنفور أو الحركة بعيدا عن الأشياء) ، والتدبر تناوب بين حالات الرغبة أو النفور ، وهو ينتهى عندما يمكث احد الدوافع وقتا كافيا ليتحول الى عمل أو تصرف ما . « وفى التدبر نجد أن الاشتهاء أو النفور الأخير الذى يقترن فى الحال بالعمل أو بالاغفال الناتج عنه (عن الاشتهاء أو النفور) هو ما نسميه الارادة (١٤) » « ان الشهوة والخوف والأمل وغيرها من الانفعالات لا تسمى اختيارية ، لأنها لا تنبع من الارادة ، بل هى الارادة نفسها ، والارادة ليست اختيارية (١٥) » « لأن كل فعل من أفعال ارادة الانسان وكل رغبة وكل ميل ، انما ينتج عن سبب ما ، وهذا السبب ينتج عن سبب آخر ، وهكذا فى سلسلة متصلة (حلقتها الأولى فى يد الله أول كل الاسباب) وكلها تنبع من الضرورة . وعلى هذا فان الذى يستطيع أن يدرك الصلة بين تلك الأسباب ، قد تبدو له واضحة جلية « ضرورة » الى كل أفعال الانسان الاختيارية (١٦) » . وهناك فى الكون بأسره سلسلة متصلة الحلقات من الاسباب والنتائج أو الآثار . وليس هناك شيء طارىء غير متوقع ، أو خارق معجز ، أو من قبيل الصدفة .

والعالم كله آلة من المادة ، متحركة طبقا لقانون ، والانسان نفسه آلة شبيهة بهذه . والاحاسيس تدخل اليه كأنها حركات ، وتولد صورا وأفكارا وكل فكرة هى بداية حركة ، وتصبح فعلا اذا لم تعقها فكرة أخرى (١٧) . وكل فكرة ، مهما تكن مجردة ، تحرك الجسم بدرجة ما ، مهما تكن غير منظورة . والجهاز العصبى عبارة عن تركيب آلى لتحويل الحركات الحسية الى حركة عضلية . والأرواح موجودة ولكنها مجرد أشكال دقيقة للمادة (١٨) . والنفس والعقل ليسا غير ماديين ، ولكنهما اسمان للعمليات الحيوية للجسم ولأعمال المخ . ولا يحاول هوبز أن يفسر السبب فى أن الوعى يتمو بمثل هذه العملية الميكانيكية من الحس الى الفكرة الى الاستجابة . انه باختزال كل الصفات المدركة للأشياء الى صور في « الذهن » ، يقترب كثيرا من الموقف الذى اتخذه باركلى فيما بعد فى دحض المادية ـ ان كل الحقيقة المعروفة لنا ادراك حسي ، وذهنى .

٣ ـ الأخلاق والسياسة :

ان هوبز مثل ديكارت قبله ، وسبينوزا بعده ، تولى تحليل الانفعالات ، لأنه يرى فيها مصدر كل أفعال الانسان ، ويستخدم الفلاسفة الثلاثة جميعهم لفظة « الانفعال » على نطاق واسع لتشمل أية غريزة أو وجدان أو عاطفة ـ وبصفة أساسية ، الاشتهاء (الرغبة) والنفور ، الحب والكراهية ، الفزع والخوف ، ووراء هذه كلها اللذة والالم ـ العمليات النفسية التى ترفع أو تخفض من حيوية الكائن الحى . والاشتهاء بداية حركة نحو شيء يبشر باللذة . والحب ضرب من الاشتهاء ، موجه نحو شخص . وكل الاندفاعات (كما كان يقول لاروشفوكولد بعد ذلك بأربعة عشر عاما) هى أشكال من حب الذات ، وكلها تنبع من غريزة المحافظة على الذات . فالاشفاق هو تصور لمصائب تنزل بنا فى المستقبل ، يثيره علمنا بمصائب الغير ، والصدقة ارضاء للشعور بالقوة فى مساعدتنا للآخرين . والاعتراف بالفضل ينطوى احيانا على شيء من العداء « أن حصولنا ممن نرى أنه مساو لنا على فوائد أو منفعة أعظم مما كنا نامل منه ، ينزع بنا الى التظاهر بالحب ، والحق انه بغض خفى ، وهو يضع المرء فى موقف المدين اليائس ، حتى

أنه فى حالة تصنعه عن رؤية دائنة ، انما يرغب ضمنا فى أن يذهب هذا الدائن الى حيث لا يراه المدين أبدا . لأن المنفعة التى حصل عليها منة طوق بها عنقه ، وفى هذه المنة أو الفضل عبودية (١٩) » . والنفور الأساسي هو الخوف . والاشتهاء الأساسي هو اشتهاء السلطة . « انى أرى فى البشر جميعا نزعة عامة . هى الرغبة الدائمة التى لا تهداء فى السلطة فوق السلطة ، وتلك رغبة لا يخمد أوارها الا عند الموت (٢٠) ». اننا نرغب فى الثراء والمعرفة بوصفهما وسائل للسلطة . وفى الأوسمة ومظاهر الحفاوة والتكريم ، لأنها دليل على السلطة ، ونحن نريد السلطة لأننا نخشي التعرض للخطر . والضحك تعبير عن التفوق والسمو والسلطة .

ان الانفعال بالضحك ليس الا تألقا أو اعتزازا مفاجئا (رضي ذاتيا) ينشأ عن ادراك مفاجىء لبعض السمو والرفعة فينا ، بالمقارنة بوهن الآخرين وعجزهم ، أو بوهننا وعجزنا فيما مضي ، لأن الناس يضحكون من حماقاتهم السابقة عندما تخطر ببالهم فجأة ، الا اذا استحضروا معها شيئا من مواطن الخزى والعار فى حاضرهم .. .. ويكون الضحك أكثر ما يكون عارضا لأولئك الذين يكونون على وعى تام بقدراتهم البالغة الضآلة ، الذين يضطرون الى التماس شيء من الراحة فى ملاحظة نقائص الآخرين . ومن ثم فان كثرة الضحك من عيوب الناس دليل على ضعة النفس . فان من أروع الاعمال التى ينهض بها ذوو العقول الكبيرة أن يساعدوا الآخرين ويحرروهم من الذل والازدراء ، وألا يقارنوا أنفسهم الا بأقدر الناس (٢١) .

والخير والشر مصطلحان ذاتيان يختلفان فى المضمون ، لا من مكان الى مكان ، ومن زمان الى زمان فحسب ، بل من شخص الى شخص أيضا . «ان الانسان يسمى موضوع شهوته أو رغبته خيرا ، وموضوع كراهيته أو نفوره شرا ، لأن هاتين الكلمتين تستعملان دائما فيما يتعلق بالشخص الذى يستخدمهما ، لأنه ليس ثمة خير أو شر بسيط أو مطلق ، وليس هناك قاعدة عامة للخير أو الشر يمكن استنباطها من طبيعة الأشياء ذاتها (٢٢) » . وقد تكون الانفعالات خيرا ، وقد تؤدى الى العظمة . « وهذا الذى ليس لديه رغبة قوية .. .. فى السيطرة أو

الثروة أو المعرفة أو الشرف والمهابة . لا يمكن أن يكون لديه خيال واسع أو عقل راجع » . ان ضعف الانفعال غباء ، وقوته بشكل غير طبيعى جنون وانعدام الرغبات موت (٢٣) .

ان بهجة هذه الحياة لا تكمن فى هجوع الذهن فى حالة من الرضي والاكتفاء . لأنه ليس هناك ما يسمونه « الغرض الأسمى » و « الخير الأسمى » كما تحدثت عنهما كتب الفلاسفة الأخلاقيين القدامى ... فالبهجة هى تقدم الرغبة المستمر من هدف الى هدف ، وتحقيق الهدف السابق يظل طريقا لتحقيق ما بعده (٢٤) .

ان حكم رجال هكذا تكوينهم وميلهم الى الكسب ، والمنافسة وحدة الاهواء والانفعالات فيهم ، ونزعتهم الى النضال والكفاح ، نقول ان مثل هذا الحكم هو أشد مهام البشر تعقيدا ومشقة ، ويجدر بنا أن نهيىء لمن يتولونه كل عون أو سلاح من علم النفس ومن القوة والسلطان. وعلى الرغم من أن ارادة الانسان غير حرة فان للمجتمع ما يبرر تشجيعه لبعض الأعمال ويطلق عليها « أعمالا فاضلة » ويثيب عليها ، على حين يندد بأعمال أخرى ، ويقول بأنها « أعمال مرذوله » ويعاقب عليها . وليس ثمة تناقض هنا مع « الحتمية » ، فان هذه الاستحسانات والتنديدات الاجتماعية تضاف ، من أجل خير الجماعة ومصالحها ، الى الدوافع التى تؤثر فى السلوك . « ان العالم يحكمه الرأى (٢٥) »، فالحكومة والدين والقانون الاخلاقى ، هى الى حد كبير تلاعب بالرأى، للتخفيف من الضرورة ونطاق القوة .

ان الحكومة ضرورية ، لا لأن الانسان شر بالطبيعة ـ لأن « الرغبات وسائر الانفعالات ليست آثمة فى حد ذاتها (٢٦) » ـ بل لأن الانسان بطبيعته أكثر نزوعا الى الفردية منه الى الروح الاجتماعية ، ان هوبز هنا لم يتفق مع أرسطو فى أن الانسان « حيوان سياسي » ، أى مخلوق مهيأ بالطبيعة للاجتماع . انه على النقيض من ذلك أدرك « حالة طبيعية » أصلية (وهى على ذلك الطبيعة الأصلية للانسان)، على أنها حالة تنافس وعدوان متبادلين لا يوقفهما الا الخوف ، ، القانون . ويمكننا (كما يقول هوبز) أن نتصور هذه الحالة لافتراضية اذا لاحظنا العلاقات الدولية فى زماننا هذا ، فان الامم

obeikandl.com

لا تزال الى حد كبير فى « حالة من الطبيعة » ، ولم تخضع بعد لقانون أو سلطة مفروضة عليها .

ان الملوك وأصحاب السلطان فى كل الأزمان ، بسبب استقلالهم ، يعيشون وسط الأحقاد والحذر ، يقفون وقفة المصارعين والمجالدين دائما ، أسلحتهم مشرعة ، وعيونهم مثبتة كل منهم على الآخر – أى قلاعهم وحامياتهم ومدافعهم على حدود ممالكهم – يبثون العيون والارصاد على جيرانهم ، وتلك هى وقفة الحرب ، لا توجد سلطة عامة ، لا يوجد قانون ولا يوجد ظلم ولا جور . والقوة والخداع هما فى الحرب فضيلتان أساسيتان (٢٧) .

وهكذا اعتقد هوبز أن الافراد والاسرات كانت قبل ظهور التنظيم الاجتماعى ، تعيش فى حالة حرب دائمة ، فعلية أو محتملة ، « كل انسان ضد الآخر (٢٨) » . ولا تقتصر الحرب على الالتحام فى المعركة فقط ، بل قد يأتى وقت يبدو فيه بشكل واضح ، عزم الانسان على الاشتباك فى معركة (٢٩) . ونبذ نظرية فقهاء الرومان وفلاسفة المسيحية فى أن هناك ، أو كان هناك اطلاقا ، « قانون طبيعى » بمعنى قوانين الصواب والخطأ ، مؤسسة على طبيعة الانسان بوصفه « حيوانا عاقلا » . وسلم بأن الانسان كان عقلانيا فى بعض الاحيان ، ولكنه أدرك أنه « مخلوق ذو انفعالات وأهواء – ورغبة السلطان والقوة فوق كل شيء – يستخدم العقل أداة للرغبة أو الاشتهاء ، ولا يحكمه الا الخوف من القوة . والحياة البدائية – أى الحياة قبل التنظيم الاجتماعى – كانت بلا قانون ، عنيفة مخيفة ، « قذرة كريهة وحشية فقيرة (٣٠) » .

وفى تصور هوبز أنه من « حالة الطبيعة » المفترضة هذه ، خرج الناس باتفاق ضمنى بين بعضهم بعضا ، على أن يخضعوا جميعا لسلطة عامة . وتلك هى نظرية « العقد الاجتماعى التى أصبحت مألوفة شائعة بفضل رسالة روسو التى تحمل هذا الاسم (١٧٦٢) . ولكنها كانت بالفعل قديمة مطروقة فى أيام هوبز . فان ملتون فى رسالته « ولاية الملك والحكام » (١٦٤٩) كان قد فسر العقد بأنه اتفاق بين ملك ورعاياه – على أنهم يطيعونه ، وعلى أنه سيقوم بمهام منصبه

على خير وجه ، فاذا أخفق هذا ، كما قال ملتون (مثل ما قال بوكانان وماريانا وكثيرون غيرهما) ، كان للشعب الحق فى خلعه . واعترض هوبز على النظرية بهذه الصيغة ، على أساس أنها لم تؤسس سلطة مخولة أن تنفذ العقد ، أو تحدد كيف ومتى نقض . وآثر القول بأن هذا الاتفاق مبرم ، لا بين الحاكم والمحكومين ، بل بين المحكومين الذين اتفقوا فيما بينهم :

انهم منحوا كل سلطانهم وقوتهم (أى حقهم فى استخدام القوة بعضهم ضد بعض) لرجل واحد أو لجماعة من الرجال .. .. فاذا تم هذا ، اتحد الجميع فى رجل واحد يسمى الدولة . وهذا هو منشأ اللوياثان الكبير .. .. بل على الأرجح منشأ « الرب الفانى » الذى ندين له ، فى ظل « الاله الحى الباقى » بسلامتنا والدفاع عنا لأنه بمقتضي هذه السلطة التى خولها اياه كل فرد فى الدولة ، له الحق فى أن يستخدم كثيرا من السلطات والقوة اللتين منحتا له ، ومن ثم فانه بالارهاب يكون قادرا على تشكيل ارادة الناس جميعا .. .. غايته من ذلك أن يستخدم كل قوتهم وكل ما يملكون من وسائل . كلما وجد الضرورة تدعو الى ذلك ، من أجل سلامهم والدفاع المشترك عنهم . وهذا الذى يمثل هذا « الشخص » ويحمل هذا العبء يسمى ملكا ، ويقال ان له سلطة ملكية ، وكل من عداه من رعاياه (٣١) .

وفى شيء من الطيش افترضت النظرية فى هؤلاء الهمج « القذرين المتوحشين » الذين سبق ذكرهم ، درجة من النظام والعقلانية والاتضاع، وهى درجة تسمح بتنازلهم عن سلطاتهم . وأجاز هوبز فى شيء من الحكمة ، أن تنشأ الدولة عن أصول بديلة : ـ

ويكمن الوصول الى هذه السلطة الملكية الحاكمة عن طريقين ، أولهما القوة الطبيعية ، كما هو الحال حين يعمد رجل ما الى اخضاع بنيه وذرياتهم لحكومته ، لأنه قادر على تدميرهم والقضاء عليهم اذا أبوا عليه ذلك ، أو يخضع أعداءه لارادته عن طريق الحرب . أما ثانيهما فهو حين يتفق الناس فيما بينهم على الخضوع طواعية واختيارا لرجل أو جماعة من الرجال ، ثقة من الناس بأن هذا الرجل أو جماعة الرجال سيتولون حمايتهم ضد الآخرين . ويمكن أن يطلق على هذا « رابطة سياسية » (٣٢) (دولة).

obeikandl.com

ومهما كان الاساس الذى قام عليه الحاكم ، فانه لكى يكون حاكما وملكا حقا ، لا بد أن يكون ذا سلطة مطلقة ، فانه بدونها لا يستطيع أن يحقق امن الفرد أو سلام الجماعة . ومقاومته انمـــا تعنى نقض العقد الاجتماعى الذى أقره ضمنا كل فرد فى الجماعة بقبوله حماية رأس الدولة له . وقد تسلم هذه « الاستبدادية الطلقة » النظرية ببعض قيود وحدود عملية . فيمكن مثلا الوقوف فى وجه الملك اذا أمر انسانا بأن يقتل نفسه أو يبتر عضوا من جسمه ليعطله أو يشوهه ، أو يعترف بجريمة لم يرتكبها ، أو اذا لم يعد الحاكم قادرا على حمـــاية رعاياه . « المفهوم أن التزام الرعايا نحو الملك يبقى ما بقيت سلطته التى يستطيع بها حمايتهم ، ولا بقاء لهذا الالتزام اذا فقد السلطان (٣٣) » . والثورة دائما جريمة الا اذا حققت نجاحا . انها دائمـــا غير مشروعة وغير عادلة ، لأن القانون والعدالة كلتيهما يحددهما ويحكمهمـــا الملك ، ولكن اذا أقامت الثورة حكومة مستقرة فعالة ، فان على المواطـــن أن يلتزم بطاعة السلطة الجديدة .

ولا يحكم هذا الملك بمقتضي الحق الالهى ، حيث أنه يســـتمد سلطته من الشعب ، ولكن يجب أن تقيد سلطته جمعية شعبية أو قانون الكنيسة . ويجدر أن تمتد هذه السلطة الى الملكية ، فيجب على الملك أن يحدد حقوق الملكية (التملك) ، وعليه أن يعيد توزيع الممتلكات الخاصة ، حيثما يقدر أن هذا يحقق المصلحة العامة (٣٤) . « والحكم المطلق » ضرورى ، لأنه اذا كانت السلطة شركة ، بين الملك والبرلمان مثلا ، فسرعان ما ينشب النزاع ، ثم الحرب الأهلية ، فتعم الفوضي وتتعرض الحياة والممتلكات للخطر . وحيث أن الأمن والسلام همـــا الضرورتان الاساسيتان للمجتمع ، فانه لا ينبغى أن يكون هناك فصل، بل وحدة كاملة وتركيز تام فى السلطات الحكومية . وحيثما توزعت السلطات لا يكون هناك ملك ، وحيثما لا يكون ملك ، لا تكون هناك دولة (٣٥) .

وبناء على هذا يكون الشكل المنطقى للحكومة هو الملكيـــة . ولا بد أن تكون وراثية ، لأن حق اختيار الخلف جـــزء من ســـيادة الملك ، ونكرر القول بأن البديل لهذا هو الفوضي (٣٦) . وقد تصلح الحكومة عن طريق جمعية ولكن شريطة أن تكون سلطتها مطلقة ، غير

خاضعة لرغبات متقلبة لدى شعب غير متعلم · « ان الديمقراطية لا تعدو أن تكون أرستقراطية خطباء (٣٧) » فما أسهل أن يهيج زعماء الدهماء مشاعر الشعب ، ومن ثم كان لزاما أن تمارس الحكومة الرقابة على الخطابة والصحافة ، وينبغى أن تكون هناك رقابة صادقة على المطبوعات والواردات وقراءة الكتب (٣٨) · ولا يجوز أن يكون هناك جدل عقيم حول الحرية الفردية والآراء الخاصة والضمير · وينبغى أن يقتلع من الجذور كل ما يهدد سيادة الملك ، ومن ثم السلام العام (٣٩) · فكيف يتسنى حكم دولة أو حماية علاقاتها الخارجية اذا بقى كل فرد حرا فى طاعة القانون أو مخالفته وفقا لرأيه الخاص ؟

٤ ـ الدين والدولة :

وكذلك يجب على الملك أن يحكم دين شعبه ، لأن الدين يمكن أن يكون قوة مدمرة متفجرة اذا تشدد فيه الناس · ويقدم هوبز تعريفا موجزا : « ان الخوف من القوة الخفية التى يلفقها العقل أو تصورها الأقاصيص ، اذا سمح بانتشاره فهو « الدين » ·

واذا لم يسمح فهو « الخرافة » (٤٠) · وهذا يهبط بالدين الى مجرد الخوف والخيال والادعاء ، ولكن فى مواضع أخرى نرى هوبز يعزوه الى التساؤل الملهوف عن علل الأشياء والحوادث وبداياتها (٤١) · وتقود ملاحقة الأسباب هذه فى النهاية الى الاعتقاد (كما اعترف الفلاسفة الوثنيون) « بأنه لا بد أن يكون هناك « محرك » واحد ، أى سبب واحد خالد لكل الاشياء ، وهو ما يعنيه الناس بقولهم الله (٤٢) » وذهب الناس بشكل طبيعى الى أن هذا « السبب الأول» كا نمثلهم : شخصا ونفسا وارادة ، ولكنه فقط أقوى منهم بكثير · ونسبوا الى هذا « السبب » كل الأحداث التى لم يستطيعوا تبين محدداتها الطبيعية بعد ، ورأوا فى الأحداث العجيبة معجزات ونبؤات للارادة الالهية ·

فى هذه الأشياء الأربعة : فكرة الأرواح ، والجهل بالأسباب الثانوية ، والتفانى فيما يخشاه الناس ، وأخذ الاشياء الطارئة على أنها نذر أو بشائر ، تنطوى البذور الطبيعية للدين ، التى نمت بسبب

مختلف أوهام الكثير من الناس وأحكامهم وأهوائهم ، نقول نمت حتى أصبحت طقوسا متباينة الى حد أن ما يقوم به فرد ، يعتبر فى معظم الأحوال سخيفا مرذولا عند الآخر (٤٣) .

كان هوبز « ربوبيا » لا ملحدا . فاعترف « بكائن اسمى (٤٤)» ذكى ، ولكنه أضاف « قد يعرف الناس ... بالطبيعة أن الله موجود ، ولو أنهم لا يدركون ما هو (٤٥) . « ويجب ألا ندرك أن لله شكلا ، لأن كل شكل محدود ، أوله أجزاء ، أو له مكان ما هنا أو هناك ، « لأن أى شيء له مكان ، لا بد أن يكون مقيدا محـــدودا » ، أو أنه يتحرك أو يظل فى مكانه ، لأن هذا مكانه ، لأن هذا ينسب له مكان ، كما يجب ألا نقول الا عن طريق المجاز بأنه يمارس الحزن والنـــدم والغضب والرحمة والحاجة والشهوة والأمل أو أية رغبة أخرى (٤٦). وخلص هوبز الى أن « طبيعة الله خافية لا يمكن فهمها (٤٧) » وقد لا يصفه هوبز بأنه روحى غير مادى ، لأننا لا نستطيع أن ندرك شيئا بلا جسم ، ويحتمل أن كل « روح » جسدية ولكن بشكل دقيق (٤٨) .

وبعد أن حـــدد هوبز لكل من الدين والرب مكانه ، عرض أن يستخدمهما أداتين للحكومة ليكونا فى خدمتها ، ومن أجل هذا أورد سوابق ذوات شأن خطير .

ان المؤسسين والمشرعين الأولين للدول بين « الامميين » (غير اليهود) الذين كانت غاياتهم الابقاء على طاعة الناس وعلى السلام ، عنوا فى كل مكان :

أولا : بأن يطبعوا فى أذهان الناس أن تلك التعاليم التى جاءوا بها فيما يتعلق بالدين ، لا يجوز الظن بأنها جاءت من عندياتهم ، بل انها جاءت بأمر من بعض الآلهة أو الارواح ، والا كانوا (المؤسسون والمشرعون) من طبيعة أسمى وأرقى من مجرد بشر معرضين للفناء ، حتى يمكن تقبل قوانينهـــم فى كثير من اليسر . وهـــكذا زعـــم « توما بومبليوس » (ثانى ملوك رومه) أنه تلقى الطقـوس التى أقامها بين الرومان من الحورية ايجريا ، كما زعم مؤسس بيرو وأول ملوكها أنه وزوجته من أبناء الشمس .

ثانيا : أن يشيعوا الاعتقاد بأن الاشياء التى تغضب الآلهـة هى نفسها الاشياء التى حرمها القانون (٤٩) .

ولكيلا يستنتج أحد أن موسي استخدم وسائل شبيهة بهـذه فى نسبة شرائعه لله ، يضيف هوبز ، فى نفور خاص من النار ، أن « الرب بنفسه ، بوحى خارق ، أقام الدين » بين اليهود .

ولكنه يشعر بأنه على حق ، بالأمثلة التاريخية ، فى أن يوصي بأن يصبح الدين أداة للحكومة ، وبناء على هذا يفرض الملك مبادىء الدين وتعاليمه . واذا كانت الكنيسة مستقلة فانه يكون هناك ملكان ، ومن ثم لا يكون هنـاك ملك أبدا ، وتكون الرعيـة موزعة بين السيدين .

اذا انتحلت السلطة الروحية حق الحكم بأن هذا أو ذاك اثم ، فانها تنتحل ، نتيجة لذلك ، حق الحكم بأن هذا هو قانون (لأن الاثم ليس الا مخالفة القانون) .. .. واذا كانت هاتان السلطتان (الكنيسة والدولة) تناوىء الواحدة منهما الأخرى فان الدولة تتعرض لخطر كبير هو خطر الحرب الأهلية والتمزق (٥٠) .

وفى مثل هذا الصراع يكون للكنيسة اليد العليا « لأن أى انسان، وهو فى كامل وعيه ورشده لابد أن يدين فى كل الامور . بالطاعـة المطلقة ، للرجل الذى يعتقد أن حكمه عليه سينجيه أو يقضي عليه ». وحين تثير السلطة الروحية نفوس الرعايا « بالخوف من العقاب أو الامل فى الثواب » من هذا النوع الخارق للطبيعة » ، وتخنق تفكيرهم وتعطل عقولهم بالكلمات الغريبة القاسية ، فلا بد أنها بذلك توقع الشعب فى حيرة ، واما أن ترهق البلاد بالظلم والجور ، واما أن تلقى بها فى أتون حرب أهلية (٥١) . ويرى هوبز أن المخرج والوحيد من مثل هذا المأزق الحرج أن تكون الكنيسة خاضعة للدولة . ولما كانت الكنيسة الكاثوليكية ترى فى هذا رأيا آخر ، فان هوبز ، فى الجزء الرابع من « لواياثان » يهاجمها على أنها ألد وأقوى عدو لفلسفته .

ثم يورد هوبز « نقدا أشد » للكتاب المقدس ـ يرتاب فى تأليف موسي للأسفار الخمسة الأولى من التـوراة ، ويؤرخ « الأسـفار

التاريخية » فى زمان متأخر عما هو وارد فى النواميس التقليدية • ويرى ألا تتطلب المسيحية من معتنقيها الا الايمان « بيسوع المسيح » أما بالنسبة لبقية أركان العقيدة ، فيجدر بها أن تجيز اختلاف الرأى بين الناس فى نطاق الحدود الآمنة للنظام العام • ولمثل هذه العقيدة البسيطة المطهرة لا يوفر هوبز مجرد تأييد الحكومة فحسب • بل كل قوة الدولة لنشرها ما وسعها الجهد • ويتفق مع البابا فى أن يكون للدولة دين واحد (٥٢) • ويشير على المواطنين بأن يتقبلوا لاهوت مليكهم دون تردد محرج ، لأن هذا واجب أخلاقى ، كما هو واجب للدولة • « لأن الحال بالنسبة لأسرار ديانتنا هى الحال بالنسبة للأقراص الصحية عند المرضي ، اذا ابتلعت دفعة واحدة كان لها فضل الشفاء ، أما اذا مضغت ، فانها فى معظم الاحوال تلفظ ثانية ولا يكون لها أى تأثير (٥٣) » • وانتهى أشد هجوم شنه انجليزى على المسيحية ، بمسيحية قامت وكأنها قانون لا مفر منه لدولة استبدادية مطلقة •

٥ – اصطياد الدب :

جاء فى الفقرة الأخيرة من « لواياثان » : « وهكذا أختم دون تحيز ، حديثى عن الحكومة المدنية والدينية التى تضطرب بفوضي العصر الحاضر ••• وليس لى من هدف الا أن أضع تحت أنظار الناس العلاقة المتبادلة بين الحماية والطاعة » •

ولم يتحقق الناس من عدم التحيز على نطاق واسع • فان المهاجرين الذين تجمعوا حول شارل الثانى فى فرنسا رحبوا بدفاع هوبز من النظام الملكى ، ولكنهم استنكروا ماديته على أنها حمق وطيش ان لم تكن تجديفا ، وعراهم الأسي والأسف لما استنفد فيلسوفهم العنيد من صفحات فى مهاجمة الكنيسة الكاثوليكية ، على حين كانوا لفورهم يلتمسون العون من ملك كاثوليكى • أما رجال الدين الانجليكانيون الذين كانوا بين اللاجئين الى فرنسا من وجه البيوريتانيين المنتصرين ، فقد تعالت صيحاتهم ضد الكتاب الى حد أن هوبز « أمر ألا يعود الى بلاط شارل الثانى (٥٤) » • ولما ألفى هوبز أنه بات بلا صديق ولا صاحب ، وبلا حماية فى فرنسا ، قرر أن

يتصالح مع كرومول ويعود الى انجلترا . وطبقا لما رواه الاسقف بيرنت ، أدخل هوبز بعض تعديلات على نصوص اللواياثان « ارضاءا للجمهوريين (٥٥) » وليس هذا مؤكدا ، ولكن المؤكد ، على أية حال ، أن نظرية الثورة غير ذات الأصل الشرعى ، والتى بررها نجاحها ، التأمت بشكل مبتور وكأنها ترقيع ، مع نظرية الطاعة المطلقة لحاكم مطلق . ان كتاب « العرض والنتيجة » النهائيتين الذى يبدو وكأنه تفسير متأخر جاء بعد أوانه ، شرح الظروف التى يمكن فيها لمواطن كان يدين بالولاء للملك من قبل ، أن يخضع فى الوقت المناسب ، وفى لباقة ، للنظام الجديد الذى كان قد أطاح بالملك . ونشر الكتاب فى لندن فى ١٦٥١ بينما كان هوبز فى باريس . وفى آخر هذا العام ، وسط شتاء قاس ، عبر البحر الى انجلترا ، حيث أوى الى ملاذ طيب عند ارل ديفونشير الذى كان قد استسلم منذ أمد طويل لبرلمان الثورة . وأعلن هوبز ولاءه وخضوعه للحكم القائم ، فلقى قبولا ، ومن ثم انتقل الفيلسوف الى دار فى لندن ، مستعينا بمعاش ضئيل أجراه عليه ارل ديفونشير ، « لأن الافتقار الى حديث العلم والعلماء كان أشد ما يضايق الفيلسوف فى الريف (٥٦) » . وكان آنذاك فى الثالثة والستين من العمر .

وشيئا فشيئا ، كلما وجد الكتاب قراء ، تكاثر النقاد على المؤلف أسرابا . فانبرى رجال الدين الواحد تلو الآخر للدفاع عن المسيحية ، وتساءلوا : من هو « وحش مامزبرى » الذى قام يتحدى أرسطو وأكسفورد والبرلمان والله ؟ . وكان هوبز جبانا ولكنه مقاتل ، وفى ١٦٥٥ أثبت من جديد فى « أصول الفلسفة » آراءه فى المادية والحتمية . وفى كتاب « اصطياد اللواياثان (١٦٥٨) نصب جون برامهول ، أسقف درى العلامة ، شراكه لهوبز وسدد الضربات اليه جيدا ، وقال أسقف آخر « أن هوبز لا يزال فى الشرك (٥٧) » . واستمرت الهجمات فى كل عام تقريبا حتى قضي الفيلسوف نحبه . ولما اعتزل ارل كلارندون منصبه (وكان قاضي القضاة) تسلى فى منفاه بنشر « رأى وعرض موجزان للأخطاء الخطيرة المؤذية فى الكنيسة والدولة فى كتاب مستر هوبز - لواياثان » (١٦٧٦) . وفى ٣٢٢ صحيفة تابع تقنين المجلدات بشكل منتظم ، وهو يقرع الحجة بالحجة فى نثر مشرق رفيع . وتحدث

كلاوندون بوصفه رجلا ذا خبرة طويلة فى المناصب السياسية ، وسخر من فلسفة هوبز على أنه رجل لم يسبق له أن تقلد مناصب ذات مسئولية ، حتى يلطف من نظرياته عن طريق الممارسة والتجربة ، وتمنى لو أن « مستر هوبز أتيح له أن يتبوأ مقعدا فى البرلمان أو فى المجلس ، أو فى دور القضاء أو أية محكمة أخرى ، حيث كان يحتمل أن يتبين أن تاملاته فى عزلته ، مهما تكن عميقة ، والتزامه المتعجرف الزائد عن الحد ببعض أفكار فلسفية ، بل حتى ببعض قواعد الهندسة ، نقول يتبين أن هذا كله قد ضلله وحاد به عن جادة الصواب فى بحثه فى السياسة (٥٨) .

ولم تكن كل الحملات على هذا النسق من الهدوء والاعتدال . وفى ١٦٦٦ أمر مجلس العموم احدى لجانه « بكتابة تقارير عن الكتب التى تنزع الى الالحاد والتجديف وانتهاك حرمة المقدسات أو تتناول بالتعريض لسمة الله وصفاته . وبخاصة الكتاب الذى نشر باسم «هوايت» (قسيس كاثوليكى سابق ارتاب فى خلود النفس) ، وكتاب هوبز ، « لواياثان (٥٩) » . يقول أوبرى « كان هناك تقرير (صحيح يقينا) بأن بعض الأساقفة فى البرلمان قدموا اقتراحا باحراق الرجل الطيب العجوز بجريمة الهرطقة (٦٠) » . وأعدم هوبز كل ما كان يمكن أن يورطه أو يدينه بعد ذلك من أبحاثه التى لم تنشر ، ثم كتب ثلاث محاورات حاول فيها أن يبرهن بأسلوب العالم المتفقة على أن أية محكمة فى انجلترا لا تستطيع أن تحاكمه بتهمة الهرطقة .

وهك الملك الذى استعاد عرشه لانقاذ الفيلسوف . ذلك أن شارل الثانى بعد وصوله الى لندن بزمن قصير ، رأى هوبز فى الشارع ، وعرف فيه معلمه السابق ، ورحب به فى البلاط . وكان بلاط عودة الملكية ينزع بالفعل الى شيء من التشكك الدينى ويدافع عن الملكية المطلقة ، ومن ثم وجد فى فلسفة هوبز بعض العناصر التى تتمشي مع الأفكار السائدة فى هذا البلاط . ولكن رأسه الأصلع وشعره الأشيب وزيه الشبيه بزى البيوريتانيين ، كل أولئك كان مدعاة للسخرية . وأطلق عليه الملك شارل نفسه اسم الدب ، وكلما اقترب منه قال : « ها قد جاء الدب لنقدم له الطعم ونغويه (٦١) » . ومع ذلك استساغ الملك اجاباته البارعة وسرعة بديهته ، وأمر برسم صورة الفيلسوف العجوز ، وتعليقها فى حجراته الخاصة ، وخصص له معاشا

سنويا قدره مائة جنيه ، ولم يكن الراتب يدفع بانتظام ، ولكنه مع ذلك ، بالاضافة الى خمسين جنيها أخرى فى السنة من أسرة كافندش، كان كافيا لسد حاجيات الفيلسوف البسيطة ٠

وبصفة أوبرى بانه كان عليلا فى شبابه ، موفور الصحة نشيطا فى شيخوخته ، ومارس لعب التنس حتى بلغ الخامسة والسبعين ٠ فاذا لم يتيسر ملعب التنس ، عمد الى المشي لفترة طويلة فى خفة وسرعة ، حتى « يتصبب منه العرق ، وعندئذ ينقد الخادم بعض النقود ليدلكه » ٠ وكان معتدلا فى أكله وشربه ، وامتنع عن أكل اللحم وشرب الخمر بعد السبعين ٠ وكان يفاخر بأنه « كان قد أفرط فى حياته مائة مرة » ولكن أوبرى حسب أن هذا الافراط لم يحدث لأكثر من مرة فى كل عام ، ولذلك لم يكن شيئا فظيعا ٠ ولم يتزوج الفيلسوف قط ، ولكن يبدو أنه كان له ابنة غير شرعية وفر لها سبل العيش الكريم بسخاء (٦٢) ٠ وكان يقرأ قليلا فى سنيه الأخيرة ، « وتعود أن يقول انه اذا كان قد قرأ قدر الآخرون لما عرف أكثر مما عرفوا » ٠ وفى الليل عندما كان يأوى الى الفراش ، والأبواب موصدة ، وهو واثق أن أحدا لا يسمعه ، كان يغنى بصوت عال (لا لأن صوته رخيم ولكن من أجل صحته) ، حيث اعتقد بأن الغناء يفيد رئيته ويؤدى الى اطالة العمر (٦٣) ٠ ومهما يكن من أمر ، فانه أصيب منذ ١٦٥٠ بشلل ارتجافى فى يديه ، واشتدت به هذه العلة حتى كادت كتابته فى ١٦٦٦ أن تكون غير مقروءة ٠

وعلى الرغم من هذا استمر هوبز يكتب ٠ وتحول من الفلسفة الى الرياضيات ، وهنا انزلق فى غير ما حرص ولا حذر ، الى خلاف مع عالم خبير هو جون واليس الذى انتقص من قيمة ادعاء الرجل العجوز بأنه كشف تربيع الدائرة ٠ وفى ١٦٧٠ ، وهو فى الثانية بعد الثمانين نشر كتابه « بهيموث » وهو عبارة عن تاريخ الحرب الأهلية فى انجلترا ، كما كتب عدة ردود على ناقديه ، وترجم الى اللاتينية كتابه « لواياثان » ترجمة رائعة ٠ وفى ١٦٧٥ كتب سيرة حياته نظما باللاتينية ، كما نظم فى نفس العام الالياذة والأوديسية شعرا بالانجليزية ، حيث « لم أجد عملا أؤديه أفضل من هذا » ٠

وفى تلك السنة ، حيث بلغ السابعة والثمانين ، عاد من لندن

الى الريف حيث قضي بقية أيام حيـاته فى ضـيعة آل كافنـدشي فى دربيشير • وفى تلك الاثناء اشتد عليه الشـلل ، كما عانى من عسر البول • ولما انتقل ارل كافندشي آنذاك من تساتسورت الى هاردويك هول أصر هوبز على مرافقته • وثبت أن الرحلة مرهقة ، وبعـدها بأسبوع انتشر الشلل فى جسمه ولم يعد قـادرا على الكلام • وفى ٤ ديسمبر ١٦٧٩ فاضت روحه بعد أن تنـاول الأسرار المقدسـة ، أنجليكانيا مخلصا ، وقد بلغ من العمر اثنين وتسعين عاما الا أربعة أشهر •

٦ ـ النتائج :

كان علم النفس الذى جاء به هوبز رائعة من روائع الاستنتاج من مقدمات غير وافية ، وقد يبدو منطقيا لأول وهلة ، ولكنـه مفكك الأوصال مهلهل بما فيه من فروض غير دقيقة وبما صوب منها مزيد من التحقيق والتمحيص والحتمية منطقية ، ولكن قد يحـددها طـراز منطقنا ، ويشكلها معالجتنا للاشياء لا الافكار • ووجد هوبز مشـقة فى أن يتصور أن أى شيء غير مادى ، ويبدو أنه من الصعب بنفس القدر أن نتصور أن الفكر والشعور ماديان ، ومع ذلك فان هذه هى الحقائق المعروفة لنا بطريق مباشر ـ وكل ما عداها فرضيات • وانتقل هوبز من الشيء المدرك بالحواس الى الاحساس الى الفـكرة دون أن يلقى ضوءا كافيا أو يوضح تماما العملية الخفية التى يولد بهـا الشيء المادى ظاهريا الفكر غير المادى ظاهريا • ان علم النفس الميكانيـكى يترنح أمام الوعى •

وعلى الرغم من ذلك فانه فى مجال علم النفس أسهم هوبز أكثر ما أسهم فى تراثنا • فقضي على « الأرواح » الميتافيزيقية مثل «الملكات» التى جاءت بها المذاهب السكولاسية (مذاهب العصور الوسطى) ولو أن هذه يمكن على الفور تفسيرها ، لا على أنها كيانات عقليـة • بل مظاهر للنشاط العقلى • وأرسي قواعد المبادىء الأكثر وضوحا فى تداعى المعانى والخواطر ، ولكنه انتقص من قيمة الفرض والانتباه فى تحديد انتقاء الافكار وتسلسلها وتشـبثها • وأورد وصـفا ناجحـا للتروى والاختيار • وكان تحليله للانفعالات ودفاعه عنها خلاصة رائعة ، ردت

الى سبينوزا الفضل التى كانت مدينة به لديكارت . وبفضل أبحاث علم النفس هذه ، طور لوك كتابه الأكثر دقة وتفصيلا « رسالة فى العقل البشرى » . وفى الرد على هوبز ، (لافلمر) ، كان تطوير لوك لرسالته عن الحكومة .

وأعادت فلسفة هوبز السياسية صياغة مكيافللى بلغة شارل الأول، ونبعث هذه الفلسفة من الاستبدادية المطلقة الموفقة التى انتهجها هنرى الثامن واليزابث فى انجلترا ، وهنرى الرابع وريشليو فى فرنسا ، كما أنه لا ريب فى أنها استمدت بعض القوة من مخالطته لأصدقائه الأدواق والملكيين المهاجرين . ومن حيث الاثر المباشر بدا أن لهذه الفلسفة ما يبررها ، فى العودة السعيدة لملك من آل ستيوارت ما زال يدعى ويطالب بسلطان مطلق غير محدود ، وينهى فترة من الفوضى المدمرة . ولكن بعض الانجليز النابهين أحسوا بأنه اذا كانت موافقة الهمجيين « القذرين المتوحشين » كافية لاقامة حكومة ، فانه موافقة الناس ، وهم فى حالة يفترض أنها أكثر تقدما ورقيا ، قد يكون من شأنها أن تكبح جماح هذه الحكومة أو تطيح بها . وهكذا نجد فى الثورة الجليلة ١٦٨٨ أن فلسفة الحكم الاستبدادى المطلق سقطت أمام اعادة البرلمان توكيد سيادته ، وسرعان ما حل مكانها تحررية « ليبرالية » لوك التى تدعو الى تحديد السلطات والفصل بينها . وبعد ديمقراطية القرن التاسع عشر النسبية ، التى نمت فى انجلترا التى يحرسها القنال ، وفى أمريكا التى تحميها البحار ، عادت استبدادية مطلقة معدلة فى دول دكتاتورية تمارس رقابة حكومية على الحياة والممتلكات والصناعة والدين والتعليم والمطبوعات والفكر . وتخطت الاختراعات الجبال والخنادق ، واختفت الحدود ، وتلاشت العزلة القومية والامن القومى . ان نظام الحكم المطلق ابن الحرب ، والديمقراطية ترف السلم .

ولسنا ندرى هل كان « لحالة الطبيعة » التى قال بها هوبز ، وجود يوما ما ، فربما كان النظام الاجتماعى سابقا للانسان ، فالقبيلة سبقت الدولة ، والعرف أقدم وأوسع وأعمق من القانون . والأسرة هى أساس بيولوجى لا يثار ينمى الذات (الأنا) وولاءاتها . وربما أصبح « علم الأخلاق » الذى جاء به هوبز أكثر ملاءمة لو أنه عمد الى تنشئة أسرة ، أما أن يترك للدولة تحديد الأخلاقيات (ولو أن هذا انتقل الى

النظم الدكتاتورية) فمعناه تدخير احدى القوى التى تعمل على تحسين الدولة والأخذ بيدها • ان الحس الخلقى يوسع فى بعض الاحيان دائرة التعاون أو الاخلاص والحب الشديد ، ثم يستحث القانون على توسيع مجال حمايته تبعا لذلك • وفى المستقبل البعيـــد قد يتسنى لدولة أن تكون مسيحية ، كما كان الحال يوما مع أشوكا الذى كان بوذيا •

وبرز أقوى تأثير لفسلفة هوبز فى « ماديته » • وسرت « أفكار هوبز » من الجماعات المفكرة الى طبقات المهنيين ورجال الأعمال • وفى هذا قال بنتلى الغضوب ١٦٩٣ « لقد زخرت بها الحانات والمقاهى بل وستمنستر هول (البرلمان) والكنائس ذاتهـــا كذلك (٦٤) » • وتقبلها كثير من رجال الحكومة فيما بينهم وبين أنفسهم ، ولكنهم فى العلن حجبُوها باحترام أبدوه للكنيسة الرسمية على أنها شكل مفيـــد للانضباط الاجتماعى لا يقـوم على تدميره الا الحمقى والأغبيـــاء • وأثرت هذه الفلسفة المادية فى فرنسا فى تشكك بيـل ، وأتت عليهـــا تطورات أشد جرأة عند لامترى ودى هولباخ وديدرو •

وكان بيل بعد هوبز من أعظم عباقرة القرن السابع عشر (٦٥) • ومهما أصاب من مدح أو قدح فقد اعترفوا بأنه أقوى فيلسوف أنجبتـــه انجلترا منذ عهد بيكون ، وأول انجليزى يعرض بحثا منهجيا أساسيا فى النظرية السياسية • وانا لندين له بفضل واضح ، ذلك أنه صـــاغ فلسفته فى ترتيب منطقى وفى نثر مشرق • واننا اذ نقرأ هوبز وبيكون ولوك ، أو فونتفل وبل وفولتير لندرك من جديد ما أنسانا الالمان اياه ، من انه ليس من الضرورى ان يكون الغمـــوض هو العـــلامة المميزة للفيلسوف ، وانه يجدر بكل فن أن يتقبل الالتزام الأدبى الاخـــلاقى واضحا أو خامدا •

٢ ـ يوتوبيا هارنجتون :

فى الوقت الذى دافع فيه هوبز عن ملكية مزعجة موجعة ، اقترح جيمس هارنجتون يوتوبيا ديمقراطية ، والآن وقد كانت الكشـــوف الجغرافية والتجارة تفتح آفاقا سحيقة من الكرة الارضـــية ، وجاءت الأساطير الى أوربا مع كل بضاعة من وراء البحار ، فقد كان من اليسير

على أرباب الخيال والقلم أن يسبحوا فى الخيال الى ركن سعيد على الخريطة ـ الى القمر أو الى الشمس مثل سيرانو دى برجراك وتوماسو كمبانللا ـ ركن قد تخزى أعرافه السياسية والاجتماعية طغيان الناس الذين تظلهم « المدنية » وبؤسهم • ان اعجاب عصر النهضة بالقديم قد أفسح المجال لقصص خيالية عن دول مثالية بشكل أو بآخر فى أراض بعيدة لم يعثورها فساد • وهكذا قدم هارنجتون فى ١٦٥٦ الى مقاهى لندن « الأقيانوسة » •

ولد هارنجتون فى بيت كريم ، وكان طبيعيا أن ينحاز الى فلسفة سياسية تناصر صغار مالكى الارض فى انجلترا • وبعد تخرجه فى اكسفورد طاف بأرجاء القارة ، وأعجب بجمهورية الأراضي الوطيئة ، وخدم فى جيشها ، وزار البندقية ، وتأثر بنظمها الجمهورية ، ورأى البابا وأبى أن يقبل اصبع قدمه ، ولما عاد الى انجلترا اغتفرت له كل خطاياه حين ذكر لشارل الاول انه لم يستطع أن يفكر تقبيل قدم أى سيد أجنبى بعد أن سبق له تقبيل يد ملك انجلترا • وعندما اعتقل شارل عين البرلمان هارنجتون لملازمته • فأحب السجين البائس ، ولكنه أوضح له أن « الجمهورية » أمر مرغوب فيه • ولازمه حتى النهاية ، وكان على المنصة ساعة اعدام شارل ، ويقولون انه كاد يموت جزعا وحزنا (٦٦) • وهدأ من روعه مولد « الجمهورية الانجليزية »، فانصرف الى شرح آرائه الجمهورية فى شكل روائى • ولكن بينما كان هارنجتون يكتب ، غير كرومول الجمهورية الجديدة الى حماية شبه ملكية ، وحين كانت « دولة الأوقيانوسة » فى طريقها الى الطبع أمر « الحامى » بوقف العمل فيها • وهنا تدخلت ابنة كرومول الأثيرة لديه ، السيدة كلايبول ، من أجل الكتاب ، وأهداه المؤلف الى أبيها ، وخرج الى النور فى ١٦٥٦ •

ان « الأوقيانوسة » هى انجلترا بالشكل الذى كان المؤلف يأمل من كرومول أن يعيد تشكيلها فيه • انه يضع مبدأ فصل تفصيلا بعد قرنين من الزمان ليصبح التفسير الاقتصادى للتاريخ • ويقول هارنجتون بأن السيطرة السياسية تتبع ، بشكل طبيعى وبحق ، السيطرة الاقتصادية ، وبهذا الانسجام وحده يمكن لأية دولة أن تنعم بالاستقرار• **« على قدر ما يكون التناسب فى ملكية الارض تكون طبيعة الامبراطورية**

- أى الحكومة (٦٧) » . فاذا امتلك فرد واحد الارض كلها (كما هو الحال فى تركيا) كانت الحكومة ملكية مطلقة ، واذا امتلكت الارض أقلية لأصبحت الحكومة « ملكية مختلطة » تؤيدها كما تحد من سلطانها الارستقراطية . « واذا كان كل النـــاس ملاكا للأرض ، أو اذا وزعت الأرض بينهم ، بحيث لا يطغى فرد أو مجموعة أفراد ، فان الامبراطورية أى الحكومة (دون فرض بالقوة) تكون دولة جمهورية (٦٨) » ورد هارنجتون على هوبز الذى ذهب الى أن كل الحكومات تستند الى القوة ، رد عليه بأنه لابد من اطعام الجيوش وتسليحها ، ومن ثم تنتقل السلطة الى أولئك الذين يوفرون المال اللازم لهذا وذاك (٦٩) . ان أى تغيير فى شكل الحكومة أو اتجاهها ، انما هو مجرد توافق بينه وبين أى تغيير فى توزيع الملكية . وعلى هذا الاساس فسر هارنجتون انتصار البرلمان الطويل ، حيث كان يمثل صغار الملاك على الملك الذى كان يمثل كبارهم .

وللحيلولة دون أن تصبح الحكومة أوليجاركية من ذوى الضـياع الكبيرة ، اقترح هارنجتون قانونا « لاعادة توزيع الأراضي توزيعـــا عادلا » يحدد للفرد الواحد أرضا لا تدر أكثر من ألفى جنيه فى العام. ان الديمقراطية الفعلية تتطلب التوسع فى توزيع الملكيـــة ، وخير ديمقراطية هى التى يكون فيها لكل مالك أرض دورة عمل فى الحكومة وفى الجمهورية الانجليزية الحقة يمكن للمواطنين أن يرسلوا ملاك الأراضي ليعملوا فى جمعية شعبية وسناتو (مجلس الشـيوخ) . والسناتو وحده يقترح القوانين ، والجمعية وحدها تقرها أو ترفضها . ويسمى أعضاء السناتو المرشحين للوظائف العامة ، وينتخب المواطنون من هذه القائمة الحكام بالاقتراع السرى (٧٠) . وفى كل عام يحل محل ثلث أعضاء الجمعية والسناتو والحكام أفراد آخرون فى انتخاب جديد . وفى هذه الدورة يتسنى لكل ملاك الارض أن يكون لهم فى النهاية دور للعمل فى الحكومة . ان هذا الانتخاب الشعبى يحمى المجتمع من المحامين الذين يخدمون المصالح الخاصة ، ومن رجال الدين - « وهم الاعداء السافرون الالداء لسلطة الشعب (٧١) » . ولسوف يكون هناك تعليم عام وشامل في مدارس وكليات وطنية ، وحرية تامة مطلقة فى العقيدة الدينية .

« وكانت النظرية أخاذة جذابة جدا » كما قال أوبرى . وسرعان ما وجدت مؤيدون متحمسين لها . وجمع هارنجتون بعضهم (ومن بينهم أوبرى) فى أحد نوادى « روتا » Rota (١٦٥٩) حيث أهاجوا الشعور العام للمطالبة بتشريع برلمانى يقر هذه الجمهورية الدورية التى اقترحها هارنجتون الذىنسب الانهيار الذى أصابالدولة آنذاك الى عجزها عن مصادرة الضياع الكبيرة واعادة توزيع الأرض على الناس بمساحات أصغر ، وكان هذا سببا فى احتفاظ النبلاء بقوتهم وسلطانهم . وبقاء الشعب على حاله من الفقر والضعف ، على أساس أن ملكية الارض هى التى تفرض الحكومة ، وأن عودة الملكية الأوليجاركية أمر لا مفر منه اذا لم يقر البرلمان قانون « اعادة توزيع الأراضي » . ويقول أوبرى : « ولكن القسم الاكبر من رجال البرلمان كانوا يمقتون كل المقت مشروع « دورة العمل بالاقتراع العام ، لأنهم كانوا طغاة ملعونين مولعين بسلطتهم وقوتهم (٧٢) » ، وآثروا أن يستدعوا شارل الثانى . وحيث استمر هارنجتون بنشر دعوته ، حتى بعد عودة الملكية ، فان الملك أمر بايداعه برج لندن (السجن) بتهمة التآمر (١٦٦١) . ولما بذلت المساعى لاخلاء سبيله بمقتضي « التحقيق فى قانونية حبس المتهم » ، نقلوه الى معتقل أكثر تضييقا واحكاما فى جزيرة بعيدة عن بليموث ، وهناك أصابته نوبات من الجنون . وأطلق سراحه ولكنه لم يسترد صحته قط .

وكانت « اليوتوبيا » التى نادى بها هارنجتون عملية أكثر من معظم « المدن الفاضلة المثالية » ، وتحقق قدر كبير منها . وربما كانت احدى نقاط الضعف فيها أنها افترضت أن الارض هى الشكل الوحيد للثروة . ان هارنجتون ذكر سلطان المال فى التجارة والصناعة ، ولكنه لم يتوقع أو لم يتنبأ بتبوئه السلطة السياسية ، وربما كان قد أحس بأنه حتى الثروة التجارية والصناعية لابد خاضعة فى خاتمة المطاف لملاك الأرض . وكان التوسع فى حق الانتخاب وفى الاقتراع السرى يتفق مع آماله المرجوة ، وعلى الرغم من أن بريطانيا رفضت فكرته فى « دورة العمل والوظائف » ، على أنها تبديد سنوى للخبرة والتجربة فان الولايات المتحدة أخذت بها فى التجديد الدورى لجزء من الكونجرس الأمريكى ، ووافق لوك مونتسكيو وأمريكا على نظريته فى الفصل بين السلطات فى الحكومة . فلا تيأسوا أيها الحالمون ، فلعل

الزمان يفاجئكم بتحقيق أحلامكم ويحول شعركم الى نثر ، أو وهمكم الى واقع ملموس ٠

٣ ـ الربوبيون :

وكما أضرت الحروب الدينية بالعقيدة الدينية فى فرنسا ، فان الحرب الأهلية فى انجلترا أسهمت فى اثارة الشكوك اللاهوتية ٠ وأشاعت ذكريات الحكم البيوريتانى الزندقة والمروق عن الدين حتى بات أمرا مألوفا بين الملكيين المنتصرين ، كما جعلت الالحاد يقترن بالمرح الصاخب والبذاءة فى بلاط الملكية العائدة ٠ واشتبه فى الحاد ارل شافتسبرى الأول ودوق بكنجهام الثانى وارل روشستر الثانى ، كما اشتبه فى الحاد هاليفاكس وبولينيروك بعد ذلك ٠

وأدى اتساع دائرة المعارف الجغرافية والتاريخية والعلمية وانتشارها الى ارتفاع موجة التشكك ٠ وفى كل يوم ، كان أحد السائحين أو المؤرخين يطلع على الناس بأنباء أمم عظيمة تختلف دياناتها وأخلاقها عن المسيحية بشكل مثير فظيع ، ولكنها عادة فاضلة مستقيمة مثلها ٠ ويندر أن كانت نزاعة الى القتل متعطشة الى سفك الدماء مثل المسيحية ٠ كما بدا أن النظرة الميكانيكية الى العالم التى رسمها ديكارت التقى الورع ، ونيوتن العالم البصير ، نقول بدا أن هذه النظرة تصرف النظر عن دور العناية الالهية » فى تسيير الكون ، وكان اكتشاف القانون فى الطبيعة يجعل من المعجزات أمرا غير مستساغ غير مقبول٠ وأسهم الانتصار البطىء الذى أحرزه كوبرنيكس ، والمحاكمة المثيرة التى عانى منها جاليليو ، فى تزعزع الايمان وتقويض أركانه ٠ بل ان المحاولة الجريئة التى قام بها كثير من رجال اللاهوت المسيحيين لشرح العقيدة على اساس من العقل ، أضعفت العقيدة ٠ ويقول أنطونى كولنز : لم يكن ثمة أحد يشك فى وجود الله ، حتى جاءت « محاضرات بويل » وأخذت على عاتقها اثبات وجوده (٧٣) ٠

ان تفنيد الالحاد كان شاهدا على انتشاره ٠ وفى ١٦٧٢ كتب سيروليم تمبل « عن أولئك الذين يبدو أنهم أذكياء لأنهم يذكرون أشياء قالها الجاهل فى نفسه ، كما جاء على لسان داود(٧٤) » وفى نفس العام قال سير تشارلز ولزلى « ان المروق عن الدين كان أمرا واقعة

في كل عصر ، ولكن يبدو أن الدفاع عنه صراحة وعلانية من خصائص هذا العصر (٧٥) » .

ويقول رئيس الشمامسة صمويل باركر ١٦٨١ :

.. .. .. ان الجهال وغير المتفقهين منا أصبحوا أكبر المتظاهرين بالتشكك والكفر ... وأصبح الالحاد والمروق عن الدين فى النهاية شائعين شيوع الرذيلة والفسوق . وفلسف الأجلاف والميكانيكيون لأنفسهم مبادىء بعيدة عن التقوى ، وقرأوا دروسهم فى الالحاد على الناس فى الشوارع والطرقات العامة ، وانهم لقادرون على أن يستخلصوا من كتاب « لواياثان » أنه ليس هناك اله (٧٦) » .

وبين الطبقات المتعلمة التمس الشك حلا وسطا فى التوحيد ـ الدين الطبيعى ـ والربوبية . وارتاب التوحيديون فى المساواة بين المسيح والاب ، ولكنهم عادة ارتضوا الكتاب المقدس نصوصا الهيه . وآثر المدافعون عن الدين الطبيعى عقيدة مستقلة عن الأسفار المقدسة ومحصورة فى المعتقدات التى رأوا أنها شاملة كلية ـ فى الله وفى الخلود . أما الربوبيون ، الذين قاموا بحركتهم أساسا فى انجلترا ، فانهم طالبوا فقط بالايمان بالله الذى اعتبره أحيانا مفهوما تجريديا غير مشخص ، مرادفا للطبيعة ، أو « الدافع الأصلى » لاله الدنيا التى قال بها ديكارت ونيوتن . وبرزت لفظة « ربوبى » Deist فى ١٦٢٧ فى « رسالة الى ربوبى » لرئيس الشمامسة ادوارد ستللنجفليت ، ولكن مطبوعات الربوبيين كانت قد بدأت بكتاب لورد هربرت شربرى « الحقيقة » فى ١٦٢٤ .

وتابع تشارلز بلونت ، أحد مريدى لورد هربرت ، رسالته فى كتاب « النفس البشرية » (١٦٧٩) . وكانت حجته أن كل ديانة أسست انما كانت من خلق أو ابتداع دجالين أفاكين سعوا الى السلطة السياسية أو الكسب المادى ، وأن الجنة والجحيم كانتا من بين المخترعات البارعة التى اصطنعوها للتحكم فى الأهالى واستغلالهم . ان الروح تموت مع الجسد . ان الانسان والحيوان متشابهان الى حد أنه « من رأى بعض الكتاب ان الانسان ليس الا قردا مصقولا » . وفى « عظمة ديانا الهة أهل افسوس » أو « منشأ الوثنية » (١٦٨٠) جعل بلونت من القساوسة

أدوات فى أيدى الطبقات الغنية التى سمنت واكتنزت بفضل كدح الشعب الصابر وسذاجته . وفى دقة ماكرة مؤذية ترجم بلونت كتاب فيلوستراتوسي « حياة أبوللنيوس أوف تيانا » ، وحدد أوجه الشبه بين المعجزات المنسوبة الى صانع الاعاجيب الوثنى والمعجزات المنسوبة الى المسيحيين ، وأوحى برفق الى التشكك فيها وعدم تصديقها جميعا على حد سواء . وفى « بيان موجز عن ديانة الربوبيين - (١٦٨٦) اقترح بلونت ديانة خالية من أية عبادة أو طقوس ، اللهم الا عبادة الله بحياة فاضلة قائمة على الأخلاق » . وفى « وحى العقل » (١٦٩٣) أوضح بلونت أن اللاهوت المسيحى قام أول الأمر على توقع خاطىء لانتهاء العالم فى وقت قريب أو مبكر ، وسخر من قصص الكتاب المقدس عن الخليقة ، ومن مولد حواء من ضلع أدم ، ومن الخطيئة الأصلية ، ومن ايقاف يشوع الشمس ، على أنها جميعا سخافات صبيانية . وأومأ الى أن « الاعتقاد بأن أرضنا الحديثة (جسم مظلم تافه فى الكون ، أصغر شأنا من النجوم الثابتة فى الحجم والمنزلة معا) هى قلب هذا الكون الشاسع الهائل وأعظم أجزائه سموا وحيوية ، انما هو اعتقاد غير منطقى وغير عقلانى ، يتعارض مع طبيعة الأشياء » . وحاول كتاب آخر غفل من اسم المؤلف ، منسوب الى بلونت بصفة غير مؤكدة ، عنوانه « معجزات لا خرق لقوانين الطبيعة (١٦٨٣) » ، حاول تفسير كثير من قصص المعجزات بأنها أفكار خاطئة راودت العقول البسيطة عن الأسباب والأحداث الطبيعية ، وأضاف الكتاب نفسه أن الكتاب المقدس انما كتب « ليثير مشاعر التقى والورع » ، لا ليعلم الفيزياء ، وينبغى تفسيره على هذا الأساس : « ان كل ما هو مناف للعقل ، وكل ما هو مناف للعقل سخيف يدعو الى السخرية وينبغى رفضة (٧٧) » على أن بلونت نفسه لم يعبد العقل الى النهاية ، اذا صدقنا ما يروى من أنه قتل نفسه (١٦٩٣) لأن القانون الانجليزى لم يكن ليجيز له الزواج من أخت زوجته المتوفاة .

وتابع جون تولاند الحملة . وبحكم مولده فى أيرلنده نشأ كاثوليكيا ، ولكنه ارتد الى البروتستانتية فى شبابه . ودرس فى جلاسجو وليدن وأكسفورد . وفى سن السادسة والعشرين أصدر كتابا غفلا من اسم المؤلف « المسيحية لاتكتنفها أسرار » (١٦٩٦) وصفه بأنه « رسالة

توضح أنه ليس فى الانجيل شيء ينافى العقل « أو يسمو فوق العقل » . ومذ تقبل بقبول حسن كتاب لوك الحديث « بحث فى العقل البشرى » حيث أثبت أن الاحساس هو أصل كل المعرفة ، فانه أى جون تولاند ، خرج منه بعقلانية متطرفة .

> انا نعتقد أن « العقل » هو الأساس الوحيد لكل حقيقة يقينية ، ولا يستثنى من مجال بحث هذا العقل أى وحى أكثر مما تستثنى الظواهر العادية للطبيعة « .. .. .ان الاعتقاد بالوهية الاسفار المقدسة أو معنى أية قطعة فيها ، دون برهان عقلانى أو حجة دامغة قوية ، انما هو سذاجة أو سرعة تصديق جديرة باللوم ...ومن المألوف أن يميل بعض الناس الى سرعة التصديق عن جهل وعن عمد ، لكن الأكثر من هذا أن ما يتوقعون من نفع هو الذى يدفعهم الى سرعة التصديق (٧٨) .

وكان هذا بمثابة اعلان للحرب . ولكن تولاند فى سياق حديثة بعد ذلك رفع غصن الزيتون ، حيث أردف أن المبادىء المسيحية الأساسية عقلانية باستثناء تحول خبز القربان والخمر الى جسد المسيح ودمه . وعلى الرغم من ذلك لم يسكتوا على هذا التحدى ، فقد اجتمع كبار المحلفين فى مدلسكس ودبلن عبر بحر أيرلنده ليستنكروا الكتاب ، فأحرق بصفة رسمية أمام أبواب البرلمان الايرلندى ، وحكم على تولاند بالسجن ، ولكنه هرب الى انجلترا ، ولما عجز عن ايجاد عمل له فيها ، هاجر الى القارة . ولبعض الوقت لقى ترحيبا لدى صوفيا ناخبة هانوفر وابنتها صوفيا شارلوت ملكة بروسيا .

والى صوفيا شارلوت هذه وجه تولاند « رسائل الى سيرينا » (١٧١٤) . وفى احداها حاول أن يتعقب أصل عقيدة الخلود ونموها ، وكانت هذه احدى المحاولات الأولى فى التاريخ الطبيعى للمعتقدات الخارقة للطبيعة . وفى رسالة ثانية عارض تولاند الرأى القائل بأن المادة فى حد ذاتها جامدة لا حركة فيها ، وقال ان الحركة صفة أساسية للمادة ملازمة لها ، وليس ثمة جسم فى سكون مطلق وكل الظواهر المدركة بالحواس ان هى الا حركات فى المادة ، بما في

ذلك الأفعال التى ياتيها الحيوان ، وقد يصدق هذا على الانسان كذلك (٧٩) • ومهما يكن من أمر فان تولاند عرض نفسه هنا للخطر، فان مثل هذه الأفكار ينبغى الا تنشر علانية ، حيث يجب ترك الجمهور غير المتعلم على معتقداته التقليدية دون ازعاج أو تشويش ، باعتبار أن هذا وسيلة للسيطرة عليه أو التحكم فيه من الناحيتين السياسية والاجتماعية • ويجدر أن يكون التفكير الحر واجب الأقلية المتعلمة وامتيازا مقصورا عليها ، وينبغى ألا يكون ثمة رقابة على هذه الأقلية « فلندع كل الناس يتحدثون بما يفكرون فيه كما يحلو لهم ، دون أو يوصموا بالعار أو يعاقبوا الا على ما ياتون من أعمال سيئة ضارة (٨٠) » • وظاهر أن تولاند هو الذى ابتكر مصطلحى « المفكر الحر » و « المؤمن بوحدة الوجود » (٨١) (القائل بأن الله والطبيعة شيء واحد ، وأن الكون المادى والانسان ليسا الا مظاهر للذات الالهية) •

ويوحى بحثه « ابن الناصرة » (١٧١٨) بأن المسيح لم يكن يقصد الفصل بين أتباعه وبين اليهودية ، وأن المسيحيين اليهود الذين ظلوا يتبعون شريعة موسي كانوا يمثلون « الخطة الأصلية الحقة للمسيحية » وهناك رسالة صغيرة « الايمان بوحدة الوجود » شرح فيها مذهب وطقوس جمعية سرية وهمية • وربما كان تولاند عضوا فى الماسونيين الاحرار التى أسست فى Mother Grand Dlodge لندن ١٧١٧ • ان هذه الجمعية كما وصفها تولاند نبذت كل الوحي الخارق للطبيعة ، وقدمت دينا جديدا يتفق مع الفلسفة ، وقالت بالتماثل بين الله والكون ، واستبدلت بالقديسين فى التقويم المسيحى أبطال الحرية والفكر • وأجازت الجمعية لأعضائها القيام بالعبادات العامة المألوفة ما داموا ، عن طريق نفوذهم السياسي يستطيعون الحيلولة دون أن يكون التعصب أمرا مؤذيا ضاريا (٨٢) •

وزاول تولاند أعمالا مختلفة لفترات متقطعة ، وركن تولاند الى حياة الفقر والعوز ، لم ينقذه منها من الموت جوعا الا لورد مولزورث والفيلسوف شافتسبرى • واحتمل فى صبر وجلد حملات التفنيد التى شنت على كتبه (٥٤ مرة فى ستين عاما) • وزعم أن الفلسفة أسبغت

عليه « هدوءا تاما » ، وحررته من « فزع الموت (٨٣) • وفى سن الثانية والخمسين أصيب بداء عضال يستعصي البرء منه (١٧٢٢) وكتب بنفسه عبارة قصيرة ملؤها الزهو والفخر لتنقش على قبره :

> هنا يرقد جون تولاند الذى ولد •• بالقرب من لندندرى •• •• نهل من مختلف الآداب والمعارف ، وكان ملما بأكثر من عشر لغات ،وكان نصير الحق والمدافع عن الحرية ، لم يربط نفسه بانسان ، ولم يتملق أى انسان ، ولميحد تحت تأثير التهديد أو تحت ضغط البؤس والفاقة عن نهجه المرسوم الذى سار عليه حتى النهاية ، مضحيا بمصلحته فى سبيل السعى وراء الخير العام ، ان نفسه متحدة مع الاب الذى فى السماء الذى جاء منه فى البداية ، وليس ثمة أدنى شك أنه سيحيا ثانية فى الخلود ، ومع ذلك فانه لن يكون هناك تولاند آخر •• •• لأن سائر الناس سوف يسترشدون بكتاباته (٨٤) •

وحمل أنطونى كولنز أمانة مذهب الربوبية بعد تولاند ، فى براعة وتواضع أكثر • وكان خير عون له فى مهمتــه انه كان ثريا ، وأن له بيتا فى الريف وآخر فى المدينة ، فلم يكن لينبذ لأنه معدم يتضــور جوعا • وكان ذا سلوك قويم ، وخلق ليس فيه مطعن • كتب اليه لوك الذى عرفه كل المعرفة : « ان حب الحق من أجل الحق وحــده هو الجانب الأساسي فى الكمال الانسانى فى هــذه الدنيـــا ، ومنبت كل الفضائل ، واذا لم أكن مخطئا ، فانك جمعت منها قدر ما وجدته فى أى انسان (٨٥) » • ان كتــاب كولنز « بحث فى التفكير الحــر » (١٧١٣) أحسن شرح للربوبية فى هذا العصر •

انه عرف التفكير الحر بانه « استخدام الفهم فى ايجــاد معنى لأية قضية أيا كانت ، والتأمل فى طبيعة الدليل ، لها أو ضدها ، والحكم عليها وفقا لنقاط القوة أو الضعف الظاهرة فى الدليل » « وليس ثمة وسيلة أخرى للكشــف عن الحقيقــة (٨٦) » • ان تبــاين المذاهب والتفسيرات المتناقضة لنصوص الكتاب المقدس لتضطرنا الى قبول حكم العقل ، فلمن نحتكم بعده اذن ، اللهم الا ان نحتكم الى القــوة ؟ • وكيف يتسنى الا عن طريق البينة والتامل والاستنتاج ، أن نقــرر أى

الأسفار فى الكتاب المقدس حجة موثوقة ، وأيها يطرح جانبا على أنها مشكوك فى صحتها • وينقل كولنز عن أحد رجال الدين أن أحصى ثلاثين ألف قراءة مختلفة اقترحها العلماء لنصوص العهد الجديد (الانجيل) وحده • ويشير الى ريتشارد سيمون ونقده المتعلق بنصوص الأسفار المقدسة (٨٧) •

ويحاول كولنز أن يرد على الاعتراضات التي آثارها المحاذرون من الرجال ضد الفكر الحر : حيث ذهبوا الى أن معظم الناس لم يؤتوا القدرة على أن يفكروا تفكيرا حرا لا يضر ولا يؤذى فى أمهات المسائل الأساسية ، وأن مثل هذه الحرية قد تؤدى الى انقسامات لا نهاية لها فى الرأى وفى الشيع والمذاهب ، ومن ثم تؤدى الى الخلل والاضطراب فى المجتمع ، وأن حرية التفكير قد تفضي الى الالحاد فى الدين والفجور والخلاعة فى الخلق • ويضرب كولنز اليونان القديمة وتركيا الحديثة مثلا للنظام الاجتماعى الذى يحتفظان به على الرغم من حرية الرأى واختلاف الأديان • وينكر أن حرية الفكر تؤدى الى الالحاد • ويقتبس عن بيكون قوله المأثور بأن الفكر الضيق ينزع بنا الى الالحاد ، وبأن التفكير الواسع يصرفنا عنه ، ويؤيد كولنز حكمة بيكون ، ثم يضيف فى اخلاص واضح ، أن الجهل « هو أساس الالحاد ، والتفكير الحر هو علاجه (٨٨) » • ويعدد المفكرين الأحرار الذين كانوا « أفضل الناس فى كل العصور » : سقراط ، أفلاطون ، أرسطو ، ابيقور ، بلوتارك ، فارو ، كاتو الوقيب ، كاتو أوتيكا ، شيشرون ، سنكا ، سليمان ، الرسل ، أوريجن ارازمز ، مونتانى ، بيكون ، هوبز ، ملتون ، تللوستون ، ولوك • وهنا وعند تولاند أيضا ، نجد نموذجا لقائمة أوجست كونت عن أعلام مذهب الوضعية ، ويرى كولنز أنه فى الامكان وضع قائمة أخرى تضم أعداء الأفكار الحرة الذين جلبوا الخزى والعار على الانسانية بقساواتهم الوحشية بحجة تمجيد الله •

وأنيرت له المنابر والجامعات وأمطرته وابلا من الردود ، وقالت ان كولنز رأى أن التعقل يتطلب الترحال • انه ربما تأثر أثناء اقامته فى هولنده بآراء سبينوزا وبيل ، ولدى عودته الى انجلترا أثار عاصفة أخرى بكتابه « بحث فى الحرية الانسانية » (١٧١٥) الذى بسط فيه ببيان قوى واضح موضوع « الجبرية » أو الايمان بالقضاء والقدر ،

حيث وجد كولنز نفسه مفكرا حرا عبدا لارادة غير حرة . وبعد ذلك بقسع سنين أثار جو اللاهوت برسالته « بحث فى أسس الدين المسيحى وتفسيره » . واقتبس عن الرسل وعن بسكال ما بنـوا به شرحهـم للمسيحية على نبوءات العهد القديم التى حققتها الشريعة الجديدة فيما يبدو ، وجادل فى أن هذه النبوءات لم تتضمن أية اشارة الى المسيحية والمسيح . ورد عليه خمسة وثلاثون من رجـال اللاهـوت فى خمس وثلاثون رسالة . وكان الخلاف ما زال محتدما حين وصل فولتير الى انجلترا ١٧٢٦ ، وطابت به نفسه فى عبث مزعج ، ونقله الى فرنسا حيث وجد طريقه الى « الاستنارة » المتشككة .

وواصل حركة الربوبية فى انجلترا وليم هويستون ، ماتيو تندال، توماس تشب وكونيرز مدلتون ، وانتقلت عن طريق بولنيرك والفيلسوف شافتسبرى الى جيبون وهيوم . ولم تعد مقبولة عند الطبقات الحاكمة مذ ارتابوا في أنها تشجع الأفكار الديمقراطية ، ولكن أثرهـا المباشر كان ملموسا فى تزعزع عابر فى العقيدة الدينية . وفى ١٧١١ رفع الى مجلس اللوردات تقرير رسمى عن هذا الموضوع . من المجلس الكنسي والانجيلى فى مقاطعة كنتربرى . ويصف التقرير سعة انتشـار الكفر والدنس ، والشكوك فى الخلود ، والانتقاص من قدر القساوسة عـلى أنهم دجالون (٨٩) . وفى مطلع القرن الثامن عشر فى انجلترا « هبط الدين الى الربوبية (٩٠) » ، وهنا فى هذه الأزمة هب نفر من ذوى العقول الجبارة فى بريطانيا فى قوة ونشاط للدفاع عن المسيحية .

٤ ـ المدافعون عن العقيدة :

كان معظم هؤلاء المدافعين مستعدين لمواجهـة مهاجميهم على أساس من العقل والعلم والتاريخ ، وقد كشف هذا فى حد ذاته عن روح العصر .

وقاد تشارلز لزلى الدفاع برسالته « منهـج قصـير سـهل مع الربوبيين » (١٦٩٧) قصد به فى الأصل أن يكون ردا على بلونت . وحاول أن يدلل على أن شواهد صحة قصص الكتاب المقدس هى من نفس طبيعة الشواهد على أعمال الاسكندر وقيصر ، وأنها مقنعة مثلها تماما . كما أن المعجزات تثبت ببينات كثيرة موثوقة يعتد بها ، قدر

ما تعتبره المحاكم الانجليزية أدلة كافية ، وما كان الكهنة ليقنعوا الناس بمعجزات مثل « انشقاق ماء البحر الأحمر » لو لم يؤيدهم فى ذلك كثير من شهود العيان . وأنهى لزلى بحثه بتصوير اليهودية بأنها ميثاق بدائى نسخه ظهور المسيح ، والوثنية بأنها مجموعة من الخرافات الصبيانية الى حد لا يقبله العقل . والمسيحية وحدها هى التى صمدت أمام البينات والعقل ×.

أما صمويل كلارك الذى ألم بقدر كبير من الرياضيات والفيزياء ، يكفى للدفاع عن نيوتن ضد ليبنز ، فانه أخذ على عاتقه اثبات الدين المسيحى ببراهين فى دقة الهندسة وقساوتها . وفى محاضرات بويل للدفاع عن المسيحية فى ١٧٠٤ ، صاغ كلارك سلسلة من اثنتى عشرة قضية تثبت ، فى تقديره ، وجود الله فى كل زمان ومكان ، وأنه قدير عليم كريم . وأن سلسلة الكائنات والأسباب المحتملة أو المعتمدة على غيرها لتفرض علينا أن نعتبر أمرا مفروغا منه وجود كائن مستقل لا غنى عنه هو السبب الأول لكل الأسباب . ولا بد أن يكون الله متحليا بالذكاء لأن الذكاء من صفات المخلوقات ، وأن يكون الخالق أعظم كمالا من المخلوق ، ولا بد أن يكون الله حرا ، والا كان ذكاؤه عبودية لا معنى لها . كل هذا بطبيعة الحال ، لم يضف جديدا الى الفلسفة القديمة أو فلسفة العصور الوسطى . ولكن فى السلسلة الثانية من محاضراته ، عرض كلارك أن يثبت « صدق الوحى المسيحى وأنه حقيقة لا ريب فيها » . فقال بأن المبادىء الأخلاقية مطلقة مثل قوانين الطبيعة ، وأن طبيعة الانسان المنحرفة يمكن على أية حال توجيهها الى الامتثال لقواعد الأخلاق عن طريق واحد هو غرس المعتقدات الدينية ، ومن ثم كان لزاما أن ينزل الله علينا الكتاب المقدس وفكرة الجنة والنار . ويضيف التاريخ ، بسخريته المألوفة أن الملكة آن فصلت كلارك ، وكان الكاهن الخاص لها ، بتهمة ارتيابه فى التثليث . وفى العهد التالي لحكم آن ، كما يقول الشيطان الماكر فولتير ، حيل بين كلارك وبين الوصول الى منصب رئيس أساقفة كنتربرى لأن أحد الأساقفة وشي به عند الأميرة كارولين ، حين قال بأن كلارك أعلم الرجال فى انجلترا ، ولكن به عيبا واحدا ، ذلك أنه غير مسيحى (٩١) .

× هنا تعرض المؤلف للاسلام بما آثرنا حذفه .

وكان بنتلى الأوسع علما قد أوضح بالفعل « حماقة الالحاد وبعده عن التعقل » فى « محاضرات بويل » ١٦٩٣/١٦٩٢ . وبعد ذلك بعشرين عاما اثاره كتاب كولنز فاصدر « بعض ملاحظات على البحث الأخير فى حرية التفكير » . وتضمن هذا الكاب بالدرجة الأولى عرضا لأخطاء فى بحث كولنز . وبدت الحجة دامغة والجدل عنيفا ، وقرر مجلس جامعة كمبردج بالاجماع تقديم الشكر الى بنتلى . ورأى جوناتان سويفت الذى كان آنذاك ملتحقا بخدمة بولنبروك وهو « ربوبى » ، أن كولنز يستحق مزيدا من العقاب لأنه كشف سرا يحتفظ به كل أفاضل الرجال لأنفسهم ووقع عليه هذا العقاب فى مقال بعنوان « بحث مستر كولنز فى حرية التفكير بسط فى لغة انجليزية سهلة ... ليستخدمه الفقراء » وسخر من الحجج التى ساقها كولنز فى مبالغات فكاهية . وأضاف قوله : حيث أن معظم الناس حمقى أغبيـاء فانه لما يجلب الكوارث أن نتركهم أحرارا فى التفكير ، « ان معظم بنى الانسـان مؤهلون للطيران قدر أهليتهم للتفكير (٩٢) » - وتلك عملية متوقعة فى أيامنا هذه أكثر مما كان يقصد سويفت . واتفـق مع هوبز فى أن الدكتاتورية حتى فى الروحانيات هى البديل الوحيد عن الفوضي . وقد رأينا أن الأنجليكانيين الأيرلنديين ذهبوا الى أن الكاهن العابس المكتئب يمكن أن يكون مطرانا ممتازا اذا آمن بالله .

اما أفلاطنيو كمبردج فقد دافعوا عن المسيحية بأسلوب أقل براعة وأشد اخلاصا . انهم ارتدوا الى أفلاطون وفلوطين يلتمسون جسرا بين العقل وبين الله ، ولم يستعينوا على ايضاح ايمانهم والتعبير عنـه بالحجج والجدل قدر استعانتهم بالنزاهة والتقـوى فى حياتهـم . وغمرهم احساس قوى بالفضيلة والقدسية فى أسمى مراتبهمـا ، حتى بدا هذا لهم أبلغ دليل وأقربه على العقل . ومن ثم زعم أول زعمائهم بنجامين هوتشكوت « أن العقل صوت الله (٩٣) » .

ذهب هنرى مور العضو البارز فى هذه الجماعة التى ذاع صيتها حينا ، الى ما وراء فلسفات أوربا ، الى فكرة هندية تقريبا عن الفراغ ، أو التفاهة الواقعية للمعرفة الحسية ، وعدم قدرتها على اشباع تطلع النفس المنفردة المنعزلة الى بعض الرفقة أو المغزى فى الكون . ولم يرتح هنرى مور الى ميكانيكية الكون التى قال بها ديكارت . ولكن

أشبعت حاجته الافلاطونية الحديثة والمتصوفون اليهود وجاكوب بوم · وتساءل « هل معرفة الأشياء هى حقا أسمى مصدر لسعادة الانسان ، أى شيء آخر أعظم وأقدس ، أو اذا افترضنا انه كذلك ، فهل تلتمس السعادة فى التلهف و الاقبال على قراءة الكتب ، أو التأمل وامعـــان النظر فى الأشياء ، أو فى تطهير العقــل من كل ألوان الرذيلة · أيا كانت (٩٤) » · وعقد العزم على تطهير نفسه من كل أنانية أو انشغال بأمور الدنيا ، أو فضول عقلى · « فلما خمدت عندى هكذا هذه الرغبة الجامحة فى معرفة الأشياء ، ولم تتق نفسي الا الى هذه الطهارة والبساطة فى العقل وحدهما ، أشرقت كل يوم بين جوانحى ثقة أعظم مما توقعت يوما ما ، حتى فى الأشياء التى كنت أرغب أشد الرغبة فى معرفتها من قبل (٩٥) » · ويقول هنرى مور انه مذ طهر نفسه جسما وروحا بهذا الشكل ، فقد فاحت من جسمه فى فصل الربيع رائحة زكية ، وان البول عنده كان له عبير البنفسج (٩٦) ·

ومذ تطهر هنرى على هذا النحو ، فقد بدا أنه يحس بحقيقة الروح فى نفسه على أنها أعظم اختبار ممكن اقناعا للانسان ، ومن هذا الاقتناع انتقل على الفور الى الاعتقاد بأن العالم معمور بأرواح أخرى على درجات تصاعدية ، من أدناها الى الله سبحانه وتعالى · وذهب الى أن كل الحركة فى المادة هى من عمل نوع من الأرواح · وبدلا من الحيز المادى الذى قال به هوبز ، جاء هنرى مور بكون روحانى ليست المادة فيه الا وسيلة وأداة للروح · وانتشرت بين آن وآخر هذه « الروح » المفعمة بالحيوية فيمـــا وراء مستقرها ، والا كيف يمكن بغير هذا تفسير المغناطيسية والكهـــرباء والجاذبية ؟ وتابع مور بحثه ، وارتضي فكرة وجود الشياطين والسـحرة والأشباح · وكان رجلا لطيفا غير أنانى ، رفض كل المناصب الرفيعـــة الدنيوية التى عرضت عليه ، وظل على علاقته الودية بهوبز الذى يدين بالمادية ، والذى قال انه اذا وجد يوما أن آراءه الخاصة يتعذر الدفاع عنها فانه « لا بد أن يعتنق فلسفة الدكتور مور (٩٧) » ·

أما رالف كودورث ، أعلم الأفلاطونيين فى كمبردج ، فانه أخذ على عاتقه أن يثبت أن آراء هوبز هشة يسهل دحضها · ان رسالة « الجهـــاز العقلى الحقيقى للكون » (١٣٧٨) تحدث هوبز أن يفسر لماذا ، بالاضافة الى مختلف الحركات الحسية والعضلية التى اختزل اليها كل عمليـــات

الذهن ، هناك أيضا ، فى أحوال كثيرة ، ادراك لهذه الحركات ، وكيف تجد أية فلسفة مادية مجالا أو وظيفة للوعى أو الشعور ؟ واذا كان كل شيء مادة متحركة ، فلماذا لا يخدم الجهاز العصبى كل شيء عن طريق الاحساس والاستجابة ، كما هو الحال فى الأفعال المنعكسة اللا ارادية ، ولا يزعجه الشعور الزائد أو غير الضرورى ؟ كيف يمكن أن ننكر حقيقة الشعور وواقعه ـ بل أولويته وأهميته ـ وهو الذى لا يتسنى بدونه معرفة أية حقيقة كانت ؟ ليست المعرفة وعاء سلبيا غير فعال للأحاسيس ، انها تحول نشيط فعال للأحاسيس الى أفكار (٩٨) . وهنا فى كلام كودورث نرى أنه يستبق بزمن طويل ، رد باكلى وكانت على هوبز وهيوم .

ولم يكن جوزيف جلانفيل ، كاهن شارل الثانى ، من الناحية الجعرافية ، واحدا من الأفلاطونيين فى كمبردج ، ولكنه اتفق معهم اتفاقا قويا . وفى « غرور الدوجماتية » (التمسك برأى دون دليل كاف) ١٣٦٦١ الصق جوزيف جريمة الدوجماتية بالعلم والفلسفة ، محتجا بأنهما أقاما نظما تتسم بالتكلف والمبالغة الحمقاء لوضع النظريات والمبادىء ، على أسس مزعزعة غير آمنة . وعلى هذا فان فكرة العلة أو السبب (التى ظنها جلانفيل أساسية لا غنى عنها للعلوم) افتراض غير معقول ولا مبرر له . فنحن نعرف التعاقبات والعلاقات والمناسبات ، ولكن ليست لنا أية فكرة عما هو الحال فى شيء يحدث أثرا فى نفسه أو فى شيء آخر (هاجس آخر لهيوم) . ويقول جلانفيل : تصور مدى جهلنا بالأشياء الأساسية جدا ـ طبيعة النفس ونشأتها ، وعلاقتها بالجسم « كيف يتحد الفكر مع كومه من الطين ؟ ان تجمد الكلمات فى المناطق الشمالية ، وحدوث هذا الاتحاد العجيب ، أمران لا يمكن تخيلهما أو تصديقهما ، سواء بسواء . ان تعليق بعض الأثقال فى أجنحة الريح يبدو أمرا أيسر كثيرا ن يدركه العقل (٩٩) » . واستبق جلانفيل بيرجسون فى أنه يسم العقل بأنه ذو بنية مادية ألف التعامل مع المادة الى حد فقدان القدرة على التفكير فى حقائق أخرى الا « بالرجوع الى الصور المادية (١٠٠) » . الى أى حد نجد حواسنا عرضة للخطأ : انها تظهر الأرض وكأنما هى ساكنة فى الفضاء ، على حين يؤكد لنا العلماء المحدثون أنها مشوشة الذهن بمجموعة مختلفة من الحركات المتزامنة . وحتى من افتراض أن حواسنا قد خدعتنا ، فما أكثر

ما نخطىء فى الاستنتاج من مقدمات صحيحة . ان مشاعرنا تضللنا المرة بعد المرة . « وما أسهل أن نؤمن بما ترغب فيه » . وغالبا ما تسيطر بيئتنا العقلية على تفكيرنا :

> ان للأفكار أجواءها وتنوعاتها الوطنية .. .. ان هؤلاء الذين لم يختلسوا النظر قط الى ما وراء المعتقدات العامة التى أشربتها أفهامهم البسيطة منذ البداية ، موقنون يقينا راسخا بصدق ما تلقوه وتفوقه نسبيا على غيره .... أما النفوس الكبيرة التى جاست خلال أجواء الفكر المختلفة (وهنا ولدت عبارة مشهورة) فانهم أشد حرصا وأكبر محاذرة فيما يتخذون من قرارات وأكثر اقتصادا وتريثا فى الفصل فى الأمور (١٠١) .

وعلى الرغم من هذه التحذيرات للعلوم ، كان جلانفيل عضوا غيورا فى الجمعية الملكية ودافع عنها ضد اتهاماتها بالمروق عن الدين، وأثنى على منجزاتها ، وتطلع الى عالم زاخر بالأعاجيب يأتى به البحث العلمى :

> لا يخامرنى الشك فى أن أعقابنا سيجدون أشياء كثيرة هى الآن مجرد اشاعات قد تأكد لهم أنها حقائق عملية . وبعد عدة أجيال من الآن ، قد لا تبدو رحلة الى الأقاليم الجنوبية المجهولة ، لا بل الى القمر ، أشد غرابة من رحلة الى أمريكا . وسوف يكون أمرا عاديا لمن يأتون بعدنا أن يشتروا جناحين ليطيروا الى المناطق النائية مثلما نشترى اليوم حذاء عالى الساق للركوب فى رحلة . كما يكون التشاور مع أقاليم الأنديز البعيدة بوسائل مريحة أمرا مألوفا للأجيال القادمة مثلما هو مألوف لدينا الآن أن نتبادل الرسائل الأدبية . ان اعادة الشعر الأشيب لليافعين وتجديد الحيوية المستنزفة قد يكون من الميسور على مر الزمن تحقيقهما دون معجزة ، كما أنه ليس من المستبعد فى زراعة المستقبل أن تتحول الأرض القفر الآن الى جنة (١٠٢) .

ويجدر بنا أن نضيف الى ما سبق أن جلانفيل ، مثل كودورث

وهنرى مور آمن بالسحرة • ان هؤلاء احتجوا بأنه اذا كان هناك عالم روحى وعالم مادى سواء بسواء ، فلابد من وجود الارواح والأجسام فى الكون • وبناء على الخطر الكامن فى الأشياء فلا بد أن تكون بعض هذه الأرواح شيطانية شريرة • واذا كان الأتقياء الورعون يتصلون بالله أو القديسين أو الملائكة ، فلماذا لا يتصل الأشرار بالشيطان وعفاريته ؟ وقال جلانفيل ان آخر خدعة للشيطان أن ينشر الاعتقاد بعدم وجوده • « ان هؤلاء الذين لا يتجرأون على القول بصراحة بأنه لا يوجد اله ، يقنعون (كخطوة مقبولة أو نقطة بداية) بأن ينكروا أن هناك أرواحا وسحرة (١٠٣) » ان الشيطان يجب انقاذه من أجل الله •

٥ ـ جون لوك : ١٦٣٢ ـ ١٧٠٤ :

١) سيرة حياته •

ولد أعظم فلاسفة العصر أثرا فى رنجتون بالقرب من برستول ، فى نفس العام الذى ولد فيه سبينوزا • ونشأ وترعرع فى انجلترا التى قامت فيها ثورة دامية وقتلت مليكها ، وأصبح الصوت المنادى بثورة سلمية وعصر يسوده الاعتدال والتسامح ، ومثل التسوية الانجليزية فى أحكم صورة وأفضلها • كان أبوه محاميا بيوريتانيا ناصر مع شيء من التضحية قضية البرلمان ، وشرح لابنه نظريتى سيادة الشعب والحكومة النيابية ، وبقى لوك مخلصا لهذه الدروس مؤمنا بها ، شاكرا معترفا بفضل أبيه فى تعويده على الرصانة الدروس مؤمنا بها ، شاكرا معترفا ليدى ماشام عن والد لوك أنه : ـ

> سلك معه فى صغره نهجا تحدث عنه الابن فيما بعد فى استحسان بالغ • ذلك أنه كان قاسيا عليه بابقائه فى رعب شديد منه ، وعلى ابعد منه ، حين كان صبيا • ولكنه كان يخفف من هذه القسوة شيئا فشيئا حتى استوى جون رجلا ، آنس منه رشدا ومقدرة فعاش معه صديقا حميما (١٠٤) •

ولم يقر لوك لمعلميه بمثل هذا الفضل • وفى مدرسة وستمنستر

أرهق باللاتينية واليونانية والعبرية والعربية ، ومن الجائز أنه لم يسمح له بشهود اعدام شارل الأول (١٦٤٩) فى ساحة قصر هويتهول القريب من المدرسة ، ولكن هذه الحادثة تركت أثرا فى فلسفته . وعوقت اضطرابات الحرب الأهلية التحاقه بكلية كريست فى أكسفورد حتى بلغ العشرين من عمره . وهناك درس أرسطو مصوغا فى قوالب سكولاسية باللاتينية ، كما درس مزيدا من اليونانية ، وبعض الهندسة والبلاغة ، وكثيرا من المنطق وعلم الأخلاق ، لفظ معظمها فيما بعد ، على أنها عتقية مهجورة موضوعا . غير مستساغة ولا مقبولة شكلا . وبعد حصوله على درجة الماجستير (١٦٥٨) بقى بكليته باحثا فى الدراسة العليا ، يدرس ويحاضر . ووقع لبعض الوقت فى غرام « سلبنى عقلى (١٠٥) » ، ثم استرد عقله وخسر عشيقته . ولم يتزوج لوك قط ، مثله فى ذلك مثل كل فلاسفة هذا العصر تقريبا - ماليرانش، بل ، فونتنل ، هوبز ، سبينوزا ، ليبنتز . ونصحوه بالالتحاق باحدى وظائف الكنيسة ، ولكنه تردد وقال : « اذا رقيت الى مكان قد لا أستطيع أن أملأ فراغه فان الهبوط منه لن يكون الا سقوطا مروعا يسمع له دوى شديد (١٠٦) » .

وفى ١٦٦١ مات والده بالسل ، تاركا له ثروة ضئيلة ورئتين ضعيفتين . ودرس الطب ولكنه لم يحصل على درجة فيه الا فى ١٦٧٤. وفى الوقت نفسه قرأ ديكارت ، وأحس بسحر الفلسفة حين تحدثت فى جلاء ووضوح . وساعد روبرت بويل فى تجاربه المعملية ، وملأه الاعجاب بالمنهج العلمى . وفى ١٦٦٧ تلقى دعوة للحضور والاقامة فى قصر اكستر ليكون طبيبا خاصا لأنطونى آشيلى كوبر الذى سرعان ما أصبح ارل شافتسبرى الأول ، عضو الوزارة أيام شارل الثانى ، ومنذ هذا التاريخ الى ما بعده ، وعلى الرغم من احتفاظه رسميا بمنصبه فى أكسفورد حتى ١٦٨٣ ، وجد لوك نفسه غارقا فى خضم السياسة الانجليزية حيث شكلت أحداثها ورجالاتها أفكاره .

وأنقذ لوك ، الطبيب ، حياة شافتسبرى حيث أجرى له عملية بارعة لاستئصال ورم خبيث (١٦٦٨) . وساعد فى المفاوضات لاتمام زواج ابن شافتسبرى ، وسهر على زوجة ابنه أثناء الوضع ، وأشرف

على تعليم حفيده ، خليفته فى الفلسفة • ويذكر هذا الحفيد ، ارل شافتسبرى الثالث أن :

مستر لوك حظى بتقدير كبير لدى جدى ، حتى أنه وقد عرف بالتجربة أنه عظيم فى الطب ، رأى أن هذا جانب صغير من جوانب عظمته ، وشجعه على الاتجـــاه بافكاره الى منحى آخر ، ولم يسمح له بمزاولة الطب الا فى أسرته أو من قبيل العطف أو الرحمة بصديق حميم • وهيـــــاه لدراسة المسائل الدينية والمدنيــة التى تهم البـــلاد ، وكل ما يتصل بمهمة الوزير فى الدولة • وقد أحرز فى هذا نجاحا كبيرا حدا بجدى الى أن يتخذ منه صديقا يسأله المشـورة فى أية قضية من هذا النوع (١٠٧) •

ولمدة عامين (١٦٧٣ – ١٦٧٥) اشـــتغل لوك سكرتيرا لمجلس التجارة والزراعة (المستعمرات) الذى كان يرأسه شافتسبرى • وساعده على وضع دستور لكارولينا التى أسســـها شافتسبرى وكان أكبر ملاك الأرض فيها • ولم تطبق هذه « النظم الأساسية » فى المستعمرة بصفة عامة ، ولكن حرية الضمير التى تضمنتها هذه النظم لقيت قبولا حسنا الى حد كبير لدى المستوطنين الجدد (١٠٨) •

ولما تخلى شافتسبرى عن مهامه السياسية ١٦٧٥ جال لوك ودرس فى فرنسا حيث التقى هناك بفرنسوا برنييه الذى أظهره على فلسفة جاسندى التى وجد فيها رفضا معقولا « للأفكار الفطرية » وهى مقارنة عقل الطفل الذى لم يولد باللوح النظيف الخالى من أى شيء ، والجملة المأثورة التى نقلت فيما بعد عبر القنال الانجليزى : « ليس ثمة شيء موجود فى العقل الا كان موجودا أولا فى الحواس » •

وفى ١٦٧٩ عاد لوك الى انجلترا والى شافتسبرى ، ولكن الارل زج بنفسه أكثر فاكثر فى غمار الثورة ، فأوى لوك الى أكسفورد حيث استأنف الدرس والبحث • وأثار القبض على شافتسبرى وهـــربه من السجن ثم فراره الى هولنده شبهات الملكيين حول أصدقائه • وانبث الجواسيس فى اكسفورد للقبض على لوك متلبسا بما يمكن أن يكون أساسا لتقديمه الى المحاكمة (١٠٩) • فلما أحس بالخطر وتنبأ باعتلاء

عدوه جيمس الثانى عرش انجلترا ، فانه كذلك لجأ الى هولنده (١٦٨٣) . على أن ثورة دوق مونموث القصيرة الأجل التى ماتت فى مهدها (١٦٨١) استفزت الملك جيمس الثانى الى أن يطلب من الحكومة الهولندية تسليم خمسة وثمانين لاجئا انجليزيا بتهمة اشتراكهم فى المؤامرة لقلب عرش الملك الجديد . وكان من بينهم لوك ، فاختبأ واتخذ اسما زائفا . وبعد سنة أرسل اليه جيمس عرضا بالعفو عنه ولكنه آثر البقاء فى هولنده . وأقام فى أوترخت وامستردام وروتردام ، حيث لم يستمتع بصداقة الانجليز اللاجئين فحسب ، بل سعد كذلك بصداقة العلماء الهولنديين مثل جين لى كُلرك وفيليب فان لمبورخ ، وكلاهما من زعماء اللاهوت الأرمينى المتحرر . وفى هذا الوسط وجد لوك تشجيعا كبيرا لآرائه فى سيادة الشعب والحرية الدينية . وهناك كتب « بحث فى العقل الانسانى » ، والمسودات الأولى لأبحاثه فى التعليم والتسامح الدينى .

وفى ١٦٨٧ اشترك فى مؤامرة لاحلال وليم الثالث محل جيمس الثانى على عرش انجلترا (١١٠) . فلما نجحت حملة نائب الملك فى هذه المغامرة ابحر لوك الى انجلترا (١٦٨٩) على نفس السفينة التى أقلت الملكة المقبلة مارى (١١١) . وقبل مغادرة هولنده كتب باللاتينية الى لمبورخ رسالة تفيض بأحر العواطف ، مما يدحض أو يصبح ما ظن من أن اعتداله المألوف نبع من برودة طبعه :

> انى اذ أرحل عنكم ، أكاد أشعر أنى أفارق بلادى وعشيرتى واهلى فان كل شيء يتعلق بالقرابة والسنة الحسنة والحب والشفقة ـ كل ما يربط الناس بعضهم ببعض بوشائج قوى من رابطة الدم ـ وجدته بينكم موفورا . انى أترك ورائى أصدقاء لا سبيل الى نسيانهم أبدا . ولن أودع الرغبة فى سنوح الفرصة لأستمتع ثانية بالرفقة الحقة لأصدقاء ، لم اشعر وأنا بينهم بأى حنين أو غربة ، حين كنت بعيدا عن ارتباطاتى الخاصة ، وأعانى من أشياء كثيرة ، أما أنت يا أفضل الرجال وأعزهم وأنبلهم ، فانى حين أفكر فى علمك وحكمتك وشفقتك وصراحتك واخلاصك ورقتك ودماثة خلقك ، يتضح لى أنى وجدت فى صداقتك أنت

وحدك ما يجعلنى أبتهج دوما لانى ارغمت على قضاء هـذا العديد من السنين فى رحابك (١١٢) ٠

وفى انجلترا التى تولى فيها أصدقاء لوك مقاليد الحكم ، تقلد الفيلسوف عدة مناصب رسمية ٠ ففى ١٦٩٠ كان مفوض الاستئناف ، وفيما بين ١٦٩٦ — ١٧٠٠ كان مفوض التجارة والزراعة ، وكان صديقا حميما لجون سومرز النائب العام ، وشارل مونتاجـو ارل هاليفاكس الاول ، وايزاك نيوتن الذى ساعده لوك فى اصلاح العملة ٠ وبعد ١٦٩١ قضي معظم وقته فى أوتس مور فى اسكس مع سير فرانسيس ماشام وقرينته ليدى داماريس ماشام احدى بنات رالف كودورث ٠ وظل فى هذا الركن الهادىء يكتب وينقح ما كتب حتى وافته المنية ٠

٢) الحكومة والملكية :

كان لوك قد بلغ السادسة والخمسين من العمر حين عاد من منفاه. ولم يكن قد نشر سوى بعض مقالات قليلة الشان ، وخلاصة بالفرنسية « للمقال » فى المكتبة العالمية التى كان يصدرها لى كلرك (١٦٨٨) ولم يكن يعرف عن اشتغاله بالفلسفة الا نفر قليل من أصدقائه ٠ وما هى الا سنة واحدة ، هى « سنة العجائب » حتى دفع الى المطبعة ثلاثة كتب سمت به الى مصاف الشخصيات البارزة الكبرى فى عالم الفكر فى أوربا ٠ وظهرت « رسالة عن التسامح » فى مارس ١٦٨٩ ، فى هولنده، ثم ترجمت الى الانجليزية فى الخريف ٠ وأعقبها فى ١٦٩٠ « برسالة ثانية عن التسامح » ٠ وفى فبراير ١٦٩٠ أصدر مقاليه عن « الحـكم المدنى » ، وهما حجر الزاوية فى النظرية الحديثة للديمقراطيـة فى انجلترا وأمريكا ، وبعد شهر واحد أخرج كتابه « بحث فى العقـل الانسانى » ، وهو أعظم المؤلفـات أثرا فى علم النفس الحـديث ٠ وعلى الرغم من اتمامه هذا الكتاب الاخير قبل مغادرته هولنـده فانه عجل بطبع مقالى « الحكم المدنى » قبله ، لأنه كان تواقا الى تزويد « الثورة الجليلة ١٦٨٨/١٦٨٩ بأساس فلسفى ٠ وقد اثبت هذا الهدف صراحة فى مقدمة المقال الاول « لتثبيت عرش منقذنا العظيم مليكنـا الحالى وليم الثالث ، وتدعيم حقه الشرعى أمام الناس ٠٠ ٠٠ وابراز عمل الشعب الانجليزى فى نظر العالم ، ذلك الشعب الذى أنقذ حبه

لحقوقه الطبيعية العادلة وتصميمه على المحافظة عليها ، أنقذ الأمة التى كانت على شفا العبودية والدمار (١١٣) » .

وكان المقال الأول والأصغر ردا على « دفاع عن السلطة الطبيعية للملك » الذى كان سير روبرت فيلمر قد ألفه حوالى ١٦٤٢ تدعيما لحقوق شارل الالهية ، والذى لم يكن قد وصل الى المطبعة الا مؤخرا (١٦٨٠) فى ذروة حكم شارل الثانى المطلق المنتصر . ولم يكن هذا الكتاب أحسن ما دبج قلم سير روبرت ، فانه نشر فى ١٦٤٨ دون أن يذكر اسمه ، « فوضي الحكم المختلط المحدد » الذى استبق به آراء هوبز . وعلى الرغم من ايداع فيلمر السجن لدفاعه عن قضية خاسرة فانه دافع عنها ثانية فى « ملاحظات على كتاب السياسة لأرسطو » الذى نشر غفلا من اسم المؤلف فى ١٦٥٢ ، قبل وفاته بعام واحد .

صور فيلمر الحكومة بأنها امتداد للأسرة . وأودع الله السيادة فى الأسرة الانسانية الأولى ، فى آدم الذى انحدر منه الآباء . وعلى أولئك الذين (مثل خصوم فيلمر) يؤمنون بأن الكتاب المقدس منزل من عند الله ، أن يسلموا بأن الأسرة الأبوية وسلطة الأب . أقرهما الله . وانتقلت هذه السيادة من الآباء الى الملوك . وكان الملوك الأوائل آباء ، وكان سلطانهم شكلا من حكم الآباء ، مشتقا منه ، فالملكية اذن ترجع الى آدم ، ومن ثم الى الله . وسيادة الملوك ، الا اذا أمروا بخرق صريح للقانون الالهى ، مقدسة مطلقة . والتمرد عليها خطيئة وجريمة فى وقت معا (١١٤) .

وعلى نقيض النظرية التى تقول بأن الانسان ولد حرا ، يقول فيلمر بأن الانسان ولد خاضعا لعادات الجماعة وقوانينها ، وللحقوق الطبيعية والشرعية للوالدين على أولادهم . « ان الحرية الطبيعية » خرافة رومانسية . وانها لخرافة أيضا أن الحكومة قامت برضا أفراد الشعب واتفاقهم . « والحكومة النيابية » خرافة أخرى . فالممثل لا يختاره الا أقلية ضئيلة نشيطة فى كل دائرة انتخابية (١١٥) . وكل حكومة هى من أغلبية عن طريق أقلية . ومن طبيعة الحكومة أن تكون فوق القانون . فللهيئة التشريعية ، بمقتضي تعريفها ، سلطة سن القوانين وتغييرها أو الغائها . « وانا لنخدع أنفسنا اذا راودنا الأمل يوما فى

أن تحكمنا سلطة غير استبدادية (١١٦) » وإذا كان للحكومة أن تعتمد على ارادة المحكوميين ، فسرعان ما ينتهى الأمر الى عدم وجود حكومة البتة ، فان كل فرد أو مجموعة أفراد ستزعم لنفسها الحق فى العصيان والتمرد وفقا لما يميله « الضمير » • وتلك هى الفوضي أو حكم الرعاع». وليس هناك طغيان يمكن أن يقاس بطغيان الجماهير (١١٧) » •

وأحس لوك أن مهمته الأولى ، وهو المدافع عن الثورة الجليلة أن يدحض حجج فيلمر • وقال « انه لم يكن هناك يوما مثل هذا الهراء المرتجل دون ترو بمثل هذه الكثرة فى لغة انجليزية رنانة » كما جاء فى مقالات سير روبرت (١١٨) • ليس لى أن أتحدث بمثل هذه الصراحة عن رجل لم يعد يستطيع أن يرد » ، لو لم يعتنق المنبر فى السنين الخوالى علانية نظريته ويجعل منها عقيدة مقدسة رائجة فى هذا العصر » ـ يعنى لو لم يعتنق رجال الكنيسة الأنجليكانية نظرية حقوق الملوك الالهية حتى فى عهد الملك الكاثوليكى جيمس الثانى ، وانتقل لوك ، فى تهكم هازل ، لاذع أحيانا ، ليعترض على أن فيلمر أرجع سلطة الملك الى ما افترض من سلطة آدم وآباء التوراه ، ولسنا فى حاجة الى تتبعه فى طول دحضه للكتاب المقدس • ونحن اليوم نبرر خلافاتنا السياسية بوسائل أخرى غير الأسفار المقدسة ان شيئا من تفكير فيلمر لا يزال باقيا بعد أن تناوله لوك بهذه الطريقة الخشنة ـ المحاولة مهما كانت خاطئة فى تفصيلها لالقاء الضوء على طبيعة الحكومة بالتماس أصولها فى التاريخ ، حتى فى البيولوجيا • ومن المحتمل أن فيلمر ولوك كليهما انتقصا من قدر الدور الذى لعبه الغزو والقوة فى اقامة الدول •

وفى المقال الثانى من « الحكم المدنى » تحول لوك الى مهمة البحث لحكم وليم الثالث فى انجلترا عن سند أقوى من الحق الالهى الذى يعيد لسوء الحظ السلطة الي جيمس الثاني • ان لوك حين اسند ارتقاء وليم العرش من رضا المحكوميين افترض أكثر مما استطاع اثباته بالتاريخ : ان الشعب لم يكن قد أعلن قبوله غزو وليم لانجلترا ، كما أن النبلاء أو أبناء الطبقة الارستقراطية الذين كانوا قد وضعوا الخطة لهذا الغزو لم يكونوا فكروا فى الحصول على موافقة الشعب ، ولم يفكروا الا فى تجنب مقاومته ، ومع ذلك فان لوك فى التماسه سندا من الفلسفة

لسلطة وليم ، أتى بدفاع مؤثر عن سيادة الشعب • وفى سبيل دفاعه عن الملك الحاكم بسط نظرية الحكومة النيابية ، وفى سياق عرضه الأساسي المنطقى لحركة الأحرار (الهويجز) والمدافعين عن حق التملك ، صاغ انجيل الحرية السياسية ، وانهى هيمنة هوبز على الفلسفة السياسية الانجليزية •

وحذا لوك حذو هوبز فى افتراض « حالة طبيعية » بدائية • قبل نشوء الدول • وشكل — مثل هوبز وفيلمر — التاريخ وفقا لأغراضه ولكنه على عكس هوبز ، تصور أن الأفراد فى « الحالة الطبيعية » كانوا أحرارا متساوين ، واستخدم هذه اللفظة ، كما استخدمها جفرسون حين نسج على منواله ، لتعنى أنه ليس لأحد بالطبيعة « حقوق » أكثر مما لسواه ، وهو يبيح للانسان فى « الحالة الطبيعية » غرائز معينة بمثابة اعداد سيكولوجى للمجتمع ، ويأتى لوك أحيانا بافتراضات لطيفة « من حيث أن كل انسان حر بالطبيعة ، فليس فى امكان أى شيء أن يخضعه لأية سلطة دنيوية الا برضاه وموافقته ...(١١٩) » ولم يكن « الطور الطبيعى » فى هذه النظرية — كما صوره هوبز — حربا بين الناس بعضهم بعضا ، لأن « سنة أو قانون الطبيعة » أيد حقوقهم بوصفهم حيوانات عاقلة • وذهب لوك الى أنه بمقتضي العقل توصل الناس الى اتفاق « عقد اجتماعى » ، الواحد منهم مع الآخر تنازلوا فيه عن حقوقهم الفردية فى القضاء والعقاب ، لا لملك ، بل للجماعة ككل • وعلى هذا تكون الجماعة هى السيد أو الحاكم الحقيقى، وهى تختار بأغلبية الأصوات رئيسا أعلى ينفذ مشيئتها (١٢٠) • ويمكن أن يسمى ملكا ، ولكنه ، مثل أى مواطن آخر ملتزم بطاعة القوانين التى تسنها الجماعة • فاذا سعى (مثل جيمس الثانى) الى خرقها أو المراوغة فى تطبيقها ، كان للجماعة الحق فى سحب السلطة التى منحتها اياه •

والحق أن لوك لم يكن يدافع عن وليم ضد جيمس ، بل عن البرلمان (المنتصر الآن) ضد أى ملك ، ان أعلى سلطة فى الدولة ينبغى أن تكون السلطة التشريعية ، التى يجب أن تختارها الأصوات الحرة غير المشتراة • ويجدر أن توقع القوانين أشد العقوبة على كل محاولة

لشراء أصوات المواطنين أو المشرعين • ولم يتنبأ لوك بأن وليم الثالث الذى أعجب الفيلسوف به قد يضطر الى شراء أصوات أعضاء البرلمان ، وأن الأسرات القوية قد تستمر لمائة وأربعين عاما بعـده تتحـكم فى أصوات « المدن الفاسدة القابلة للرشوة » أو تقرر مصيرها • وينبغى أن تكون السلطة التشريعية مستقلة تمام الاستقلال عن السلطة التنفيذية ، وأن يكون كل من جهازى الحكومة هذين رقيبا على الآخر •

ويقول لوك « ليس للحكومة من هدف الا صيانة الملكية (حـق التملك) (١٢١) » لقد كانت هناك شيوعية بدائية ، حين نما الطعام دون زراعة ، واستطاع الانسان أن يعيش دون كد ولا كدح ، ولكن عندما بدأ العمل انتهت الشيوعية ، لأن الانسان أخذ لنفسه ، ملكا خاصا به ، أى شيء ذا قيمة أضفاها عليه جهده هو • فالعمل اذن هـو مصـدر « ٩٩ ٪ » من كل القيم المادية (١٢٢) • (وهنا قدم لوك للاشتراكية الحديثة على غير قصد منه اطلاقا ، أحد مبادئها الأساسية) • ان المدنية تنمو عن طريق العمل ، ومن ثم عن طريق نظم الملكية بوصفها نتـاج العمل • ومن الناحية النظرية ليس لانسان أن يمتلك أكثر مما يستطيع استخدامه (١٢٣) • ولكن اختراع النقود مكنه من بيع فائض نتـاج عمله ، مما لم يستطع الانتفاع به ، وعن هذا الطريق ساد التفـاوت الكبير أو عدم المساواة فى الملكية بين الناس ـ وربما كنا نتوقع ، عند هذه النقطة ، من لوك أن ينتقد تركيز الثروة ، ولكنه بدلا من ذلك نظر الى الملكية مهما كان سوء توزيعها ، على أنهـا أمـر طبيعى مقدس ، فاستمرار النظام الاجتماعى والمدنية يستلزم أن تكون حماية الملكيـة أسمى غرض للدولة • « وليس فى مقدور السلطة العليا أن تستولى على أى جزء من أملاك الانسان الا بموافقته ورضاه (١٢٤) » •

وعلى هذا الأساس لم يقر لوك أية ثورة تنطوى على التجريد من الملكية • ولكنه بوصفه نبى الثورة الجليلة وصوتها لم يستطع أن ينكر « الحق فى قلب الحكومة (١٢٥) » • ان الشعب فى حل من الطاعة اذا كان ثمة محاولات غير مشروعة للاعتـداء على حرياته وممتلكاته ، « لأن » هدف الحكومة هو الصالح العام للبشر • وأيهما أفضـل لبنى الانسان : تعرض الناس دائما للرغبـة الجامحة فى الطغيان ، أو أن

يتعرض الحكام أحيانا للمقاومة اذا أسرفوا فى استخدام سلطتهم واستغلالها فى القضاء على ممتلكات الشعب ، لا فى المحافظة عليها (١٢٦) ؟ » وعلى حين أجاز بعض الهيجونوت والفلاسفة اليسوعيين الثورة لحماية الدين الحق الواحد ، نجد لوك لا يقرها الا لحماية الممتلكات . ان النزعة الدنيوية كانت تغير من مركز القداسة وتعريفها .

وظل تاثير لوك على الفكر السياسي مسيطرا حتى ظهور كارل ماركس . وكانت فلسفته عن الدولة ملائمة كل الملاءمة لحكم الأحرار (الهويجز) وللخلق الانجليزى الى حد تجاهل أخطائها طيلة قرن من الزمان باعتبارها هنات هينات فى عهد أعظم (مجنا كارتا) جليل الشان للبرجوازية . انها لم تضف هالة على ١٦٨٩ فحسب ، بل ، مع سبق مشهود ، كذلك على ١٧٧٦ و ١٧٨٩ — أعنى المراحل الثلاث لثورة العمل ضد المحتد . والمال ضد الأرض . ويسخر النقاد اليوم من لوك اشتقاقه للحكومة من رضا الأفراد الأحرار وموافقتهم فى الطور الطبيعى ، كما سخر هو من فيلمر اشتقاقه الحكومة من الآباء ومن آدم ومن الله . ان « الحقوق الطبيعية » مشبوهة ونظرية ، والحق الطبيعى الوحيد فى مجتمع ليس فيه قانون هو القوة المتفوقة ، كما هو حادث الآن بين الدول . أما فى المدنية فالحق هو الحرية التى يرغب فيها الفرد ولا تكون ضارة بالجماعة « وقد يوجد حكم الأغلبية فى الجماعات الصغيرة فى الأمور غير الحيوية » وتمارس الحكم عادة أقلية منظمة . والحكومات الآن تضطلع بالتزامات أكبر من مجرد حماية الملكية .

ومع ذلك فان تحقيق هذه الرسالة الثانية يظل انجازا عظيما . انه وسع من قيمة انتصار البرلمان و « الاحرار Whigs على « المحافظين » Tories ، حتى صاغ من هذا الانتصار نظرية الحكومة النيابية المسئولة . تلك النظرية التى ألهبت مشاعر الشعوب الواحد منها بعد الآخر فى تسنمها مراقى الحرية . ونبذت انجلترا فكرة السلطات التى جاء بها لوك ، وأخضعت الحكومة بأسرها للسلطة التشريعية ، ولكن نظريته كانت تهدف الى الحد من قوة السلطة التنفيذية . وقد تحقق هذا الهدف تحقيقا كاملا . ان كثيرا من ثقته فى

حصافة الناس ولباقتهم ، واعتداله فى تطبيق النظرية على الممارسة أو العلم على العمل ، أصبح منهجا قياسيا ذا قيمة معترف بها فى السياسة الانجليزية ، جعل الثورة أمرا تدريجيا دقيقا لا يكاد يدرك ، بينما هى حقيقة واقعة .

وانتقلت آراء لوك من انجلترا الى فرنسا مع فولتير فى ١٧٢٩ ، واعتنقها مونتسكيو عند زيارته لانجلترا ١٧٢٩ / ١٧٣١ ، وكان لها صدى عند روسو وغيره قبل الثورة الفرنسية وفى أثنائها ، وبرزت بأجلى معانيها فى « اعلان حقوق الانسان » الذى أصدرته الجمعية التأسيسية ١٧٨٩ . وعندما ثار مستعمرو أمريكا فى وجه جورج الثالث حين استعاد قوة الملك وسلطانه ، نراهم اقتبسوا آراء لوك وصيغه بل الفاظه تقريبا فى « اعلان الاستقلال » الذى أصدروه . كما أن الحقوق التى أثبتها لوك أصبحت « وثيقة الحقوق » فى التنقيحات العشرة الأولى للدستور الأمريكى . أما نظريته فى فصل السلطات ، كما وسعها منتسكيو لتشمل السلطة القضائية ، فقد أصبحت عنصرا أساسيا فى شكل الحكومة الأمريكية ، كما أخذت عنايته البالغة بالملكية طريقها الى التشريع الأمريكى ، وأثرت مقالاته عن التسامح فى الآباء المؤسسين فى فصل الكنيسة عن الدولة واقرار الحرية الدينية ويندر أن نجد فى تاريخ الفلسفة السياسية رجلا بمفرده كان له مثل هذا الأثر الخالد الباقى .

٣) الذهن والمادة :

كان تأثير لوك شاملا وعميقا فى علم النفس قدر تأثيره فى نظرية الحكم المدنى . وظل يكتب رسالته عن « العقل الانسانى » منذ ١٦٧٠ ويتميز هذا البحث بأنه دفع به الى المطبعة بعد عشرين عاما قضاها فى مراجعته وتنقيحه ، ثم تسلم عن هذه التحفة الرائعة فى علم النفس التحلبلى ثلاثين جنيها . ويعزو لوك نفسه مشروعه فى هذا البحث الى مناقشة جرت فى لندن ١٦٧٠ :

> اجتمع فى حجرتى خمسة أو ستة من الأصدقاء ، وكنا نناقش موضوعا بعيدا عن هذا كل البعد ، وسرعان ما وجدنا أنفسنا فى مأزق نتيجة الصعوبات التى اعترضتنا من كل النواحى ، وبعد أن تملكتنا الحيرة لبعض الوقت دون

الوصول الى حل قريب لهذه الشكوك ... خطر ببالى اننا نهجنا نهجا خاطئا . وأننا قبل أن نشرع فى التحقيق فى طبيعة هذا الموضوع ، كان لزاما علينا أن نختبر قدراتنا نحن ، ونرى أى « الموضوعات » تصلح ، أو لا تصلح أفهامنا لمعالجتها ، وعرضت هذا على الرفاق الذين وافقوا جميعا من فورهم ، ومن ثم اتفقنا على أن يكون هذا أول ما نبحث فيه . وكانت بعض الأفكار السريعة المهوشة التى عرضتها فى اجتماعنا التالى ، هى المدخل الأول لهذا المبحث(١٢٧) .

ومن الواضح أن الذى حفز لوك الى كتابة « مقال عن العقل الانسانى » هو الخلاف الذى نشب بين الأفلاطونيين فى كمبردج من الذين حذوا هنا حذو الفلاسفة السكولاسيين - فى أننا نستمد أفكارنا من الله ومن المثل الأخلاقية العليا ، لا من التجربة والخبرة ، بل من الاستبطان ، وأن هذه الأفكار فطرية أصيلة فينا ، وجزء من جهازنا العقلى ، مهما كنا غير واعين عند الولادة . وهذه الفكرة ، لا بيانات ديكارت الثانوية عن « الأفكار الفطرية » ، هى التى أدت بلوك الى النظرفى مسألة هل هناك أية أفكار لم تكن وليدة تأثيرات العالم الخارجى (١٢٨) . وخلص لوك الى القول بأن كل المعرفة بما فى ذلك أفكارنا عن الله وعن الصواب والخطأ مستمدة من الخبرة ، وليست جزءا من التركيب الفطرى للعقل . وعرف أنه فى محاولته للبرهنة على هذه النظرية التجريبية قد يسيء الى كثير من معاصريه الذين أحسوا بأن الأخلاق تتطلب مساندة الدين لها ، وأن الأخلاق والدين كليهما ينهار ويضعف اذا نبعت أفكارهما الأساسية من منبع أقل شرفا من الله سبحانه وتعالى . وطلب الى قرائه أن يتجملوا بشيء من الصبر معه ، أما هو من جانبه فقد كان قاب قوسين أو أدنى من منزلق المناقشة الخطيرة ، فى روح من الشك المتواضع . « أنا لا أزعم أنى ألقى درسا ، بل أنا أسأل (١٢٩) » . وفى ايجاز ، اعترف بأنه كان « كسولا مشغولا الى حد بالغ(١٣٠) » .

ولكنه على الأقل استطاع أن يحدد مصطلحاته ، وهو يعترض على « الغموض المتكلف عند بعض الفلاسفة (١٣١) » ان معرفتنا الدقيقة بما تدل عليه وتعنيه ألفاظنا قد ينهى .. .. النزاع ... فى كثير من

الأحوال (١٣٢) » • وينبغى التسليم بأن مذهب لوك فى هذه النقطة يفضل ممارسته له • انه يعرف « العقل » بأنه « قوة الادراك الحسي »، ولكنه يستخدم الادراك الحسي ليشمل : (١) ادراك الأفكار فى عقولنا • (٢) وادراك معانى الألفاظ ، (٣) وادراك التوافق أو التنافر بين الأفكار (١٣٣) • ولكن ما هى الفكرة ؟ ان لوك يستخدم هذا الاصطلاح ليعنى : (١) تأثير الأشياء الخارجية على حواسنا (وهو ما يجب أن نسميه الاحساس) ، أو (٢) الوعى الداخلى بهذا التأثير (وهو ما يجب أن نسميه الادراك الحسي) ، أو (٣) صورة الفكرة أو الذكرى المتصلة بها (وهو ما يجب أن نسميه الفكرة) ، أو (٤) « الحركة التى تجمع صورا منفردة كثيرة لتكون مفهوما عاما أو مجردا أو شاملا لمجموعة من الأشياء المتشابهة • ان لوك لا يوضح دائما فى أى معنى يستخدم اصطلاحه المزعج × »•

لن لوك يبدأ بنبذ « المبادىء الفطرية » • ان هناك رأيا ثابتا لدى بعض الناس بأن هناك فى العقل بعض « مبادىء فطرية معينة ، أو بعض مفاهيم غامضة أولية مطبوعة فى ذهن الانسان تتلقاها النفس منذ بداية نشأتها ، وتأتى بها معها الى الدنيا » • ويأخذ فى ايضاح « بطلان هذه الفرضية (١٣٥) » • أنه لا ينكر « النزعات » الفطرية ـ التى سميت فيما بعد الانتحاء (النزعة الى الحركة استجابة لمنبه ما) أو الأفعال المنعكسة اللا ارادية أو الغرائز ، ولكن هذه فى رأيه عادات سيكولوجية ، وليست أفكارا • وحذا حذو هوبز فوصف مثل هذه العمليات بأنها « سلاسل من الحركات فى روح الحيوانات ، اذا انطقت استمرت فى الخطوات التى اعتادت عليها ، والتى تصبح بعد كثرة ارتيادها طريقا ممهدا ، كما تصبح الحركة فيه سهلة ، وكأنها طبيعية » أو فطرية(١٣٦) •

× ان لوك ـ فى دراسته لذاتية الأفكار العامة أو المندرجة فى طائفة واحدة ـ يوضح أن اصطلاح « النوع » كما هو مطبق على الكائنات • هو تركيب عقلى ، وملاءمة عقلية ، وان العالم الموضوعى لا يحتوى على أنواع مستقلة ، بل مجرد أفراد مستقلين ، تنحدر كلها « فى خطوات يسيرة ، وفى سلسلة مستمرة من الأشياء التى يختلف الواحد منها عن سائرها قليلا فى كل انتقال • حتى نأتى الى أحقر جزئيات المادة وأقلها حيوية •••• والحدود أو الفوارق بين الأنواع ، والتى يصنفها الانسان بمقتضاها ، انما هى من صنع الانسان (١٣٤) » •

وهو يميل الى أن يوجز توارد الخواطر فى أنها طرق سيكولوجية ٠ وكان ديكارت قد ذهب الى أن فكرة الله فطرية أصيلة فينا ، ولكن لوك ينكر هذا الرأى ٠ فان بعض القبائل وجدت دون أن تكون لديها فكرة عدالة ، كما أن بعض الذين يعتنقونها تتباين لديهم المفاهيم أو الصور عن الآلهة الى حد يكون معه من الحكمة أن نرفض فكرة « نشوئها بالفطرة أو بالسليقة » ، وأن نبنى ايماننا بالله على « لآيات البينات على كمال حكمته وقدرته ٠٠٠ فيما خلق وأبدع (١٣٧) » ـ أعنى الخبرة ٠ وبالمثل ليس هناك « مبادىء عملية فطرية » ـ ليس هناك مفاهيم فطرية عما هو صواب وما هو خطأ ٠ فالتاريخ يوضح لنا مجموعة متباينة ، عظيمة أحيانا متناقضة أحيانا أخرى ، من الأحكام الخلقية ، مما لا يمكن معه اعتبارها جزءا من التراث الطبيعى للانسان ، بل هى تراث اجتماعى يختلف من مكان الى مكان ، ومن زمان الى زمان (١٣٨) ٠

وبعد أن تخلى لوك عن « الأفكار الفطرية » جاء ليتساءل : كيف تولد أو تنشأ الأفكار ؟ « فلنفترض أن العقل (عند الولادة) ، كما يمكن أن يقال ، صفحة بيضاء خالية من أى رسم أو نقش ، ومن أية أفكار ، فكيف يتأتى تزويده ؟ ٠٠ ٠٠ وعلى هذا السؤال نجيب بكلمة واحدة ، من الخبرة ، وعليها تبنى كل المعرفة ، ومنها تستمد فى النهاية (١٣٩) »٠ فكل الأفكار مستمدة اما من الاحساس و الانعكاس على نتاج احساسنا ٠ والأحاسيس كلها مادية ، ونتائجها العقلية هى الادراك الحسي ، وهو « أولى مواهب العقل » (١٤٠) ٠

ولم يجد لوك سببا للارتياب فى امكان حصولنا على معرفة حقيقيته صحيحة عن العالم الخارجى ، ولكنه قبل الرأى الذى استقر منذ أمد طويل ، ألا وهو التمييز بين الصفات الأولية والصفات الثانوية للأشياء المدركة ٠ أما الصفات الأولية « وهى التى لا يمكن فصلها عن الجسم اطلاقا ، فى أية حالة مهما كانت » مثل : الصلابة ، الامتداد ، الشكل ، العدد ، والحركة أو السكون ٠ أما الصفات الثانوية « فليست شيئا فى هذه الأشياء نفسها ، بل مجرد قوى تحدث فينا احساسات متعددة بصفاتها الأولية » ٠ فالألوان والأصوات والطعوم والروائح صفات ثانوية تحدث فينا بكتلة هذه الأشياء وشكلها ونسيجها أو حركتها ٠ أما الأشياء نفسها فليس لها لون ولا وزن ولا طعم ولا رائحة ولا صوت ولا حرارة ٠ وكان هذا

التمييز قد ظهر منذ البرتوس ماجنوس وتوما الاكوينى (القرن ١٣) ، وقد قبله ديكارت وجاليليو وهوبز وبويل ونيوتن ، ولكن عرض لوك لفكرة التمييز هذه وتوكيده لها هيألها انتشارا واسعا من جديد • فقد تصور العلم الآن أن العالم الخارجي محايد صامت غير متحيز ، فقدت أزهاره وثماره عطرها ونكهتها • وربما هبط هذا المفهوم بالشعر الى الشعر المنثور فى « العصر الأوجستى » - أوائل القرن الثامن عشر فى انجلترا ، عهد الملكة آن ، ولكنه اكتشف فى آخر الأمر أن الصفات المحسة حقيقة مثل الأجسام نفسها ، وثأرت الرومانسية لنفسها من الكلاسيكية حيث جعلت المشاعر أسمى حقيقة •

وأدى تحليل الشيء أو الجسم الى صفات ، على هذا النحو ، الى هذا السؤال : ما هو الجوهر الذى يبدو أن الصفات الأولية تلازمه باعتبارها جزءا منه ؟ واعترف لوك بأننا لا نعرف من هذا الجوهر الخفى الغامض شيئا الا صفاته ، فاذا نزعت هذه الصفات فان الجوهر - أى الأساس الضمنى أو المفهوم ضمنا لهذه الصفات - يفقد كل معنى له ، وظاهرا أيضا أنه يفقد وجوده (١٤١) • وهنا يتدخل باركلى : اذا كنا لا نعرف الا صفات الأشياء أو الأجسام ، ونعرف أن هذه الصفات هى مجرد أفكار ، فكل الحقيقة اذن ادراك حسي ، وعند ئذ يصبح لوك ، بطل التجريبية العظيم - الخبرة هى مصدر كل المعرفة - يصبح مثاليا يحيل المادة الى فكرة : أضف الى ذلك أن « العقل » افتراضي مثل الجوهر أو الجسم أو المادة تماما • وفى فقرة مشهورة يتجاوز لوك باركلى ويسبق هيوم :

> ونفس الشيء يحدث فيما يتعلق بعمليات الذهن ، مثل التفكير والاستنتاج والخوف وغيرها ، التى لا نخلص الى القول بأنها توجد من نفسها ولا نعى كيف تتبع الجسم أو كيف يمكن أن يحدثها الجسم ، ولكنا نميل الى الظن بأنها نشاط جوهر ما نسميه الروح ، بواسطتها ، ولو أنه من الواضح أنه ليس لدينا فكرة أو مفهوم آخر من المادة الا أنها شيء توجد فيه هذه الصفات المحسوسة التى تؤثر على حواسنا ، فانه كذلك بافتراض جوهر فيه التفكير والمعرفة والشك والقدرة على الحركة وغيرها ، فيكون لدينا فكرة واضحة عن الروح كما هو الحال بالنسبة للجسم : الأولى يفترض (دون أن نعرف

ماهتيها) ، انها جوهر لتلك الأفكار البسيطة التى نستمدها من الخارج ، والآخر يفترض (مع نفس القدر من الجهل بماهيته) أنه جوهر لهذه العمليات التى نمارسها فى داخل أنفسنا (١٤٢) ٠

وحيث أقر حينئذ « بأن فكرتنا عن الجوهر غامضة ، أو ليس لدينا فكرة اطلاقا عنه فى « العالمين » (الخارجى والداخلى) كليهما، وأن الأمر لا يعدو » أن يكون افتراض الجهل بما يدعم هذه الأفكار التى نسميها أحداثا ، فان لوك يخلص الى أنه فى كلتا الحالتين يسوغ لنا الاعتقاد بوجود جوهر ، على الرغم من أننا لا يمكن أن نعرفه : فى مادة وراء الصفات المحسوسة أو أنها تبتعثها ، وفى عقل وراء الأفكار أو يحتويها ــ عامل روحى يؤدى مختلف عمليات الادراك والتفكير والشعور والارادة (١٤٣) ٠

وهما يكن من أمر العقل ، فان عملياته كلها من نوع واحد ــ حركة الأفكار أو نشاطها ٠ ويرفض لوك الفكرة السكولاسية عن « المواهب » فى العقل ، مثل التفكير والشعور والارادة ٠ فالتفكير هو اتحاد الافكار أو الجمع بينها ، والشعور هو ترجيح فكرة سيكولوجية أو صداها ، والارادة فكرة تنطلق الى العمل أو التصرف ، مثلما تنزع كل الأفكار الى العمل الا اذا عوقتها فكرة أخرى × ٠ ولكن كيف يمكن أن تصبح الفكرة عملا ــ كيف يمكن أن تصبح العملية « الروحية » عملية فسيولوجية وحركة مادية ؟ ان لوك يقبل كارها ثنائية الجسم المادى والعقل غير المادى ، ولكنه فى فترة من فترات الطيش يوحى بأن العقل يمكن أن يكون شكلا من « المادة » ٠ وهناك فى هذا الصدد عبارة مأثورة عن لوك :

من الممكن أنه لن يكون فى مقدورنا أبدا أن نعرف أن مجرد كائن مادى يفكر أو لا يفكر ، وحيث أنه يستحيل علينا ، بالتأمل فى أفكارنا نحن ، دون وحى أو الهام ، أن

× فى الطبعة الأولى من مقال العقل الانسانى لم يسلم لوك بوجود « ارادة حرة » الا فى حالة التحرر من أى قيد أو كبت خارجى ٠ وفى الطبعات الأخيرة عدل عن هذه « الجبرية » ليجيز القول بان العقل يمكن أن يؤجل أو يوقف مؤقتا تنفيذ رغباته أو شباعها (١٤٤) ٠

نكتشف هل زودت القدرة الالهية بعض أنواع المادة الميالة بطبعها ، بالقدرة على الادراك والتفكير ، أو أنها (أى القدرة الالهية) ضمت الى المادة الميالة على هذا النحو ، أو ثبتت فيها جوهرا مفكرا غير مادى ، فانه بالنسبة لأفكارنا ، ليس يبعد عن الفهم أن ندرك أن الله قادر اذا شاء أن يضيف الى المادة « موهبة للتفكير » ، أكثر من أنه سبحانه وتعالى يمكن أن يضيف اليها جوهرا آخر فيه موهبة للتفكير .. ان من يرى كيف أنه من الصعب ، فى أفكارنا ، توافق الاحساس مع المادة الممتدة ، أو توافق الوجود مع شيء ليس له امتداد اطلاقا ، سوف يقر ويعترف بأنه بعيد كل البعد عن معرفة ماهية نفسه على وجه اليقين ... وهذا الذى يطلق لنفسه العنان ليتأمل فى حرية ... يندر أن يجد فى عقله القدرة على تحديد موقفه تحديدا تاما من « مادية النفس » سلبا أو ايجابا (١٤٥) .

وعلى الرغم من أن لوك كان قد تغلب بالفعل على الجانب المادى من المعضلة ، فان الايحاء باحتمال صدقه أو حقيقته ، بالنسبة لتيار الفكر فى ذاك العصر ، أساء الى الدين القويم الى حد أن مائة من المدافعين عن الديانة هاجموه بتهمة أنه أيد « فى طيش وتهور » آراء الملحدين . ولم يلقوا بالا لاحترامه واجلاله للوحى ، ولبيانه القديم « أن الرأى الأرجح والأكثر احتمالا هو أن الشعور مرتبط بجوهر فرد غير مادى ، وهو حب هذا الجوهر والتعلق به (١٤٦) » ، وربما تنبأ هؤلاء المدافعون بأن لامترى وهولباخ وديدور وغيرهم من فلاسفة المادية قد يرون فى كلام لوك نزوعا خفيا الى وجهة نظرهم .. واتهمه الأسقف ستللنجفليت بمثل هذه النزعة المادية على وجه التحديد ، وأنذره بأنها تعرض اللاهوت المسيحى كله للخطر . وتناسي لوك حرصه المعهود ، وأكد من جديد وبقوة ، احتمال صدق الفرضية المادية وظل على خلاف بشأنها مع ستللنجفليت وغيره حتى ١٦٩٧ .

على أن مقال « العقل الانسانى » على الرغم من نقاده وما فيه من تناقضات وغموض وابهام ، وغير ذلك من الأخطاء ، تزايدت قيمته وأهميته وأثره عاما بعد عام . وتهافت الناس على طبعاته الأربع فى

obeikandi.com

الأربعة عشر عاما التى انقضت بين ظهوره ووفاة مؤلفه لوك • وظهرت له طبعة بالفرنسية فى عام ١٧٠٠ ، وتقبلوه هناك فى اعجاب حماسي • وأصبح حديث الناس فى قاعات الاستقبال فى انجلترا • وأكد ترسترام شاندى لسامعيه أن الرجوع الى « المقال » يمكن أى انسان من « الابتعاد بنفسه عن التفكير فى الميتافيزيقا (١٤٧) » • وكان تأثيره على باركلى وهيوم عظيما الى حد أننا نستطيع أن نؤرخ بظهوره تحول الفلسفة البريطانية عن الميتافيزيقا الى المعرفة • وربما كان لوك ماثلا فى ذهن بوب حين كتب « أن الدراسة الصحيحة للجنس البشرى هى الانسان »•

وفى ١٧٠٠ ظهرت طبعة بالفرنسية للمقال ، ولقيت هناك ترحيبا حماسيا بالغا • وكتب فولتير يقول : « بعد أن صاغ بعض السادة المفكرين أسطورة رومانسية عن النفس ، ظهر رجل واحد حكيم حقا ، وأمدنا بتاريخها الصحيح فى أعظم حالة من التواضع يمكن تصورها • ان مستر لوك قد كشف للانسان تشريح النفس ، كما لو أن بعض علماء التشريح يشرحون الجسم (١٤٨ » • ونعود فنقول « ان لوك وحده » بسط العقل الانسانى فى كتاب لا يضم الا حقائق وهو كتاب بلغ حد الكمال والاتقان ـ لأن هذه الحقائق مبسوطة فيه بأجلى بيان (١٤٩) » وبات المقال الانجيل السيكولوجى لعصر الاستنارة فى فرنسا • وتبنى كونديلاك « المذهب الحسي الذى جاء به لوك وتوسع فيه وذهب الى أن شيئا لم يستجد فى علم النفس فيما بين أرسطو ولوك (١٥٠) ـ وهذا اجحاف واضح بالفلاسفة السكولاسيين (العصور الوسطى) وهوبز وينسب دالمبرت ، فى « بحث تمهيدى فى دائرة المعارف » الى لوك الفضل فى خلق الفلسفة العلمية ، كما خلق (فى رأيه) نيوبين الفيزياء العلمية • وعلى الرغم من مجاهرات المقال بالمعتقد القويم ، فانه مهد لتجريبية عقلانية ، سرعان ما نبذت النفس باعتبارها فرضية غير ضرورية ، وانطلقت الى تطبيق نفس التفكير بالنسبة لله سبحانه وتعالى •

٤ ـ الدين والتسامح :

لم يتعاطف لوك نفسه مع مثل هذا التطرف ، ومهما يكن من أمر شكوكه الخاصة ، فانه أحس ، كأى رجل انجليزى مهذب ، بأن السلوك

القويم والخلق الكريم يتطلبان من الكنيسة المسيحية دعما شاملا . واذا كانت الفلسفة تنزع عن الناس ايمانهم بعدل الهى كامن وراء جور الحياة وشقائها ، فماذا عساها تقدم لتقوية آمال الناس والابقاء على شجاعتهم ؟ تقدم ببطء نحو يوتوبيا ديمقراطية ؟ ولكن فى مثل هذه اليوتوبيا هلا يبتدع الجشع الطبيعى فى الناس وعدم المساواة بينهم وسائل جديدة ليستخدم الدهاة والأقوياء غيرهم من البسطاء والضعفاء أو يسيئوا استغلالهم ؟ .

وكان أول همه أن « يضع المقاييس والحدود بين العقيدة والعقل». وعمد الى تحقيق هذا فى الفصل الثامن عشر من الباب الرابع من المقال . « انى أجد كل شيعة تحاول جهدها ، بقدر ما يسعفها العقل، أن تفيد منه عن طيب خاطر ، وحيثما يخفق العقل تصرخ وتصيح بأعلى صوت : تلك مسألة ايمان وعقيدة فوق العقل (١٥١) » . ان كل ما أوحى به الله حق على وجه اليقين (١٥٢) » . ولكن التأمل وحده فى الدليل المتاح هو الذى ينبئنا اذا كانت الأسفار المقدسة هى كلمة الله ، « وليس ثمة قضية يمكن تقبلها على أنها وحى الهى ، اذا كانت تناقض معرفتنا الأكيدة البديهية (١٥٣) » . واذا كان فى مقدورنا تقرير مسألة ما بمثل هذه الملاحظة المباشرة ، فان معرفتنا تسمو على أى وحى مزعوم ، لأنها أوضح وأكثر توكيدا من أى توكيد بأن هذا الوحى الذى نحن بصدده الهى حقا . ومهما يكن من أمر « فهناك أشياء كثيرة لدينا عنها أفكار غامضة ناقصة ، أو ليس لدينا عنها أفكار البتة ، وثمة أشياء أخرى لا نستطيع بالاستخدام الطبيعى لمواهبنا ، الوصول الى معرفة شيء عن وجودها فى الماضي أو الحاضر أو المستقبل ، مطلقا ، ولكونها فوق العقل ، فانها اذا كشفت ، تكون « المادة الصحيحة للعقيدة والايمان (١٥٤) » . ويخلص لوك الى القول : « ليس هناك شيء يناقض أوامر العقل الواضحة البديهية أولا يلتئم معها ، يحق له أن يشجع أو يؤكد على أنه مسألة عقيدة لا دخل للعقل فيها (١٥٥) » « وثمة أمارة لا تخطىء » على حب الحق . « ألا نهلل ونرحب بأية قضية فى توكيد أكبر مما تجيزه الأدلة التى تقوم عليها القضية (١٥٦) » . « وينبغى أن يكون العقل أول حكم ومرشد لنا فى كل شيء (١٥٧) » .

ومن ثم نشر لوك فى ١٦٩٥ « معقولية المسيحية كما تنقلها الأسفار المقدسة » . وأعاد قراءة العهد الجديد ، كما يمكن أن يقرأ الانسان كتابا جديدا ، طارحا كل التعاليم والتعليقات جانبا (كما قال) . وسيطر عليه نبل السيد المسيح المحبب الى النفس ، وجمال كل تعاليمه تقريبا ، باعتبارها خير آمال الانسان وأكثرها اشراقا . واذا كان ثمة شيء يمكن ن يكون رسالة الهية فان هذه القصص وذاك المذهب تبدو وكأنهما من عند الله . ورأى لوك أن يتقبلها جميعا على أنها مقدسة ، بل أن يقرها أيضا ، فى كل ساسياتها ، باعتبارها متفقة كل الاتفاق مع العقل .

ولكن بدا له أن هذه الأساسيات أكثر اعتدالا وبساطة من اللاهوت المعقد فى المواد التسع والثلاثين ، أو اعتراف وستمنستر أو مذهب أثناسيوس . واقتبس من الانجيل فقرة بعد فقرة ، لا تطلب كلها من المسيحى الا أن يؤمن بالله وبأن المسيح رسول من عند الله . وهنا — كما يقول لوك ديانة بسيطة صريحة واضحة ، صالحة لكل انسان ، لا تعتمد على أى فقه أو لاهوت . وفيما يتعلق بوجود الله ، فقد شعر لوك « بأن أعمال الطبيعة بكل دقائقها أوفى دليل على وجود الله (١٥٨) » وحاول لوك من وجوده هو نفسه أن يبرهن على « سبب أول » ، وانتهى الى أن مثل هذه الخصائص لابد أن تنسب أيضا الى الله ، والله « عقل سرمدى خالد (١٥٩) » وحينما شكا نقاد لوك من أنه أغفل بعض التعاليم الحيوية مثل خلود النفس والعذاب المقيم والنعيم المقيم ، أجاب بأنه فى الاعتراف بالمسيح ارتضي تعاليمه التى شملت تلك الآراء والعاليم . ومن ثم خرج لوك من الباب الذى دخل منه .

ومهما يكن من أمر ، فان لوك ألح على أن تتمتع بالحرية الكاملة فى انجلترا كل المذاهب المسيحية فيما خلا الكثلكة . وكان قد كتب مقالا عن التسامح فى ١٦٦٦ . وعندما ارتحل الى هولنده ١٦٨٣ وجد هناك من حرية العبادة أكثر مما كان فى انجلترا . ولا بد أنه قرأ أثناء اقامته فى هولنده دفاع بيل القوى عن التسامح الدينى (١٦٨٦) . وحركت مشاعره هجرة الهيجونوت واضطهادهم (١٦٨٥) فكتب الى صديقه لمبورخ رسالة استحث نشرها . فطبعت باللاتينية ١٦٨٩ تحت عنوان.

« رسالة فى التسامح » وظهرت ترجمتها الى الانجليزية قبل نهاية العام . واستنكرها أحد أساتذة أكسفورد ، فدافع عنها لوك ، وكان آنذاك فى انجلترا ، فى رسالة ثانية وثالثة » عن التسامح فى ١٦٩٠ / ١٦٩٢ . ولم يحقق قانون التسامح الذى صدر فى ١٦٨٩ من مقترحات لوك الا قليلا جدا ، ذلك أن القانون استبعد الكاثوليك والتوحيديين واليهود والوثنيين وحظر تولى الشئون العامة على المخالفين . ان لوك أيضا أتى باستثناءات فلم يكن ليتسامح مع الملحدين حيث رأى أنهم غير أهل للثقة ما داموا لا يخشون الها ولا ديانة توقع عذابا ماديا ، بالتضحية بالانسان مثلا ، ولم يتسامح مع مذهب يتطلب الولاء لسلطة أجنبية ، ومفهوم أنه كان يعنى الكثلكة (١٦٠) . ودعا صراحة الى التسامح مع المشيخيين والمستقلين ، وأنصار تجديد العماد، والأرمينيين والكويكرز . ولم يتجاسر على القول بالتسامح مع التوحيديين ولو أن أرل شافتسبرى الأول الذى قضي نحبه فى أمستردام ١٦٨٣ كان قد ذكر أنه كان قد استقى مذهب الأرمينيين والتوحيديين من سكرتيره لوك (١٦١) .

وقال لوك بأن القانون ينبغى أن يهتم فقط بالمحافظة على النظام الاجتماعى . فان للقانون الحق فى القضاء على كل ما من شأنه العمل على التخريب فى الدولة ، ولكن ليس له ولاية ولا سلطان على نفوس الناس ، وليس لأية كنيسة سلطة لارغام الناس على مشايعتها .. فما أسخف أن يعاقب الناس فى الدنمرك لأنهم غير لوثريين ، أو فى جنيف لأنهم لا يتبعون مذهب كلفن ، أو فى فيينا لأنهم لا يعتنقون المذهب الكاثوليكى . وفوق كل شيء ، أى فرد أو أية جماعة أتيح لها ادراك الحقيقة الكاملة عن حياة البشر ومصير الانسان ؟ ولحظ لوك أن معظم الديانات تنادى بالتسامح فى أيام ضعفها ، ولكنها تأباه فى أيام قوتها .. ورأى أن الاضطهاد مصدره شهوة السلطان والسيطرة ، والحقد المقنع فى ثياب الغيرة الدينية . والاضطهاد يصنع المنافقين ، أما التسامح فانه يشجع المعرفة والحق ، وكيف يعمد المسيحى الى الاضطهاد والتعذيب والاساءة ، وقد أخذ علي نفسه عهدا بالبر والاحسان ومحبة الناس ؟

وواصل لوك حملته من أجل التسامح حتى غابت شمس حياته .

وكان منهمكا فى كتابه رسالة رابعة فى نفس الموضوع حين وافته المنية • وعاجله الموت ١٧٠٤ بينما كان جالسا يصغى الى ليـــدى ما شام تتلو المزامير •

وحتى قبل موته كان قد وصل فى مجال الفلسفة الى مكانة لم يســم عليها الا نيوتن فى ميدان العلوم • وتحدث عنه بالفعل بانه «الفيلسوف» وعلى حين ختم حياته على تقوى قوية تقليدية تقريبا ، فان كتبه التى لم تكن لتتغير مع الزمن ، انتقلت عن طريق الطبعات والترجمات العديدة الى فكر أوربا المتعلمة المثقفة • قال شبنجلر : « ان الاستنارة الغربية من أصل انجليزى ونبعت كلا عقلانية القارة من لوك (١٦٢) » • وليست كلها بطبيعة الحال • ولكن فيمن يمكن للمرء الآن أن يغامر بمثل هـــذه المبالغة أو الاغراق ؟ •

٦ ــ شـافتسبرى : ١٦٧١ ــ ١٧١٣

كان أنطونى آشلى كوبر ، ارل شافتسبرى الثالث ، تلميذ لوك • مفخرة لمعلمه • لا لأن لوك كان مسئولا عن أسلوبه ، فان العالم النفسانى البحاثه كتب نثرا مبتذلا ، بسيطا واضحا عادة (وهنا يكمن الخطر) ، ولكنه قلما كان نثرا جميلا ، فان شافتسبرى ذا الفراغ والجدة ، كتب فى تهذيب واثق ، ودعابة متسامحة ، ورشاقة غالية (فرنسية) تقريبا ــ فقد تنازل السيد الاقطاعى الانجليزى أن يكون فيلسوفا • ويجدر بنا أن نقف عنده قليلا لأنه يكاد يكون مؤسس علم الجمال فى الفلسفة الحديثـــة ، وبانقاذه الوجدان والتعاطف من أيدى هوبز ولوك ، غذى فيض العاطفة الذى بلغ ذروته عند روسو •

وتحت اشراف لوك ، وعلى نهجه فى تعليم اللغة بالمحادثة ، مكنت اليزابث بيرش التى كانت تحذق اليونانية واللاتينية ، أنطونى من قراءة كلتا اللغتين بسهولة وهو فى سن الحادية عشرة ، ثم التحق بمدرســة ونشستر ، وتجول لمدة ثلاثة أعوام تعلم فى أثنائها الفرنسية وأســاليب الحياة الفرنسية ، ومال الى الفــن ميــلا لابد أنه بدا غير لائق بلورد انجليزى • ودخل البرلمان لمدة عام واحد ــ وهذا كاف جدا ليظهره على « جور وفساد الحزبين كليهما (١٦٣) » • ولكن دخان لندن زاد من وطأة

الربو عليه فعاد أدراجه الى هولنده ، حيث وجد الجو الفكرى نابضا بفلسفة سبينوزا وبيل ، ومذ حصل على لقب ارل ١٦٩٠ فانه قضي بقية أيام حياته فى ضيعته الريفية • وتزوج قبل وفاته بأربع سنوات ، وكم كانت دهشته حين وجد أنه سعيد كما كان من قبل (١٦٤) • وفى ١٧١١ نشر مجموعة مقالاته تحت عنوان شامل « خصائص الانسان ، العادات ، الآراء ، العصر الحاضر • ولم يمتد به الأجل لأكثر من اثنين وأربعين عاما ، حيث فارق الحياة فى ١٧١٣ •

ولم يكن متوقعا من رجل ورث هذا الثراء العريض على الأرض أن يعنى بأمر السماء أو يقلق باله من أجلها • انه استنكر « الغيرة » ـ التى كان زمانه يعنى بها التعصب ـ غيرة الانجليز الذين ظنوا أنهم انما ينطقون بالوحى الالهى • ان أية عاطفة جامحة أو كلام عنيف كان فى رأى شافتسبرى دلالة على سوء التربية ، ولكنه رأى أنه من الحكمة أن يسخر منهم أكثر من أن يعذبهم • والحق أنه بدا له أن الظرف والدعابة اللتين جعلهما موضوع رسالته الأصلية الخلاقة ، هما خير مدخل لأى شيء ، حتى اللاهوت • واتفق مع بيل على أن الملحدين مواطنون مهذبون ، وأنهم أساءوا الى الدين والأخلاق أقل مما فعلت وحشية العقائد التى سيطرت واستغلت نفوذها • واعترض على « عبادة وحب اله قلب حول شديد الغيظ ، عرضة للحنق والغضب ، مهتاج محب للانتقام ••• يشجع الخداع والخيانة بين الناس ، يرضي عن قلة من الناس ويقسو على سائر الناس (١٦٦) » • وعجب مما كان لمثل هذا المفهوم عن المعبود من أثر على خلق الانسان وسلوكه • وذهب الى أنه من الخسة والجبن ألا يتحلى الانسان بالفضيلة الا أملا فى الثواب أو خوفا من العقاب • فالفضيلة لا تكون حقيقية صادقة الا اذا تحلى بها المرء من أجلها هى • ومهما يكن من أمر ، وما دام الانسان هو على ما هو عليه ، فمن الضرورى أن يغرس فى نفسه الايمان بمثل هذا الثواب والعقاب فى المستقبل (١٦٧) • « انه من صادق الانسانية والشفقة اخفاء الحقائق الهامة عن القلوب الواهنة •• وقد يكون لزاما ألا يتحدث العقلاء الا رمزا (١٦٨) » ، وهكذا دافع شافتسبرى عن كنيسة رسمية ، وحاول أن يوفق بين الايمان بوجود اله واحد فى فلسفة متفائلة أوجزت الرذيلة فى أنها هوى انسانى (١٦٩) • ومع

ذلك فان الكساندر بوب رأى أن كتاب « خواص الانسان » أساء الى الديانة المنزلة في انجلترا أكثر مما أساءت كل مؤلفات الكفار السافرين غير المتحفظين (١٧٠) .

واتفق شافتسبرى مع أرسطو ولوك على أن السعادة هى الهدف المشروع لأفعال الانسان ، وعرف الفلسفة بأنها « دراسة السعادة (١٧١) » . ولكنه عارض الهبوط بكل الدوافع الانسانية الى مجرد أنانية أو مصلحة شخصية ، وطبقا لهذا التحليل (الذى بسطه هوبز ولاروشفوكول حديثا) :

> يكون التلطف والكرم والانسانية تجاه الغرباء أو الناس فى وقت الشدة ، مجرد انانية أكثر تعمدا . والقلب المخلص الأمين قلب أشد مكرا ، والامانة والود مجرد حب للذات ، ولكنه حب أحسن تنظيما وضبطا . وحب الأقارب والأبناء والذرية انما هو حب خالص للنفس وللدم المباشر للانسان ... والشهامة والشجاعة ، لا ريب ، تكيف أو تعديل لحب النفس الشامل هذا (١٧٢) .

وعلى عكس هذا الرأى ، زعم شافتسبرى أن الطبيعة الانسانية مزودة بشكل مضاعف بغرائز للنفع الشخصي ، وغرائز للعيش فى جماعة . واعتقد أن المجتمع والدولة ما نشأتا عن عقد اجتماعى ، بل عن « مبدأ القطيع » أو نزعة التزامل ... وهى نزعة طبيعية قوية فى معظم البشر (١٧٣) وهناك « عواطف طبيعية قائمة فى حب الجنس البشرى . وفى محاولة ارضائه ، والشعور الودى نحوه والتعاطف معه ... وتوافر هذه العواطف فى بالغ قوتها معناه توافر الوسائل الاساسية للمتعة الذاتية ، أما الافتقار اليها فهو التعاسة والسقم المحققان (١٧٤) » . وكون المرء « طيبا صالحا » معناه توجيه كل ميوله ونزعاته توجيها مستقيما ثابتا نحو خير الجماعة ، وكلما كبرت الجماعة التى توحى بهذه المشاعر وتبثها ، حسنت حال الناس فيها . والشعور بهذا التعاطف الاجتماعى هو الوعى الاخلاقى . وهذا شيء فطرى ، لا من حيث المتطلبات النوعية (التى تختلف من جماعة الى جماعة) ولكن من حيث أساسه الغريزى ، « الاحساس بالصواب

والخطأ ؛ وهو فنيا أمر طبيعى مثل الميل الطبيعى نفسه ، وهو من أول المبادىء فى تكويننا (١٧٥) » .

وانتقل شافتسبرى من علم الأخلاق الى علم الجمال بالمطابقة بينهما . فالطيب والجميل شيء واحد ، فالخلق الحسن « هو تذوق الجمال واستساغة كل ما هو مهذب محتشم » ، ومن ثم نتحدث عن أعمال معادية لمصلحة المجتمع بأنها قبيحة ، حيث أنها تسيء الى هذا التناسق بين الجزء والكل ، وهو صلاح وجمال معا . ويستطيع المرء أن يجعل من حياته عملا من أعمال الفن - من الوحدة والتناسق - بتنمية احساس جمالى ستكون الأخلاقيات فيه أحد العناصر ، والرجل « الذى نشيء خير تنشئة » (هكذا اعتقد الارستقراطى شافتسبرى) يفعل هذا . وهو بحكم تربيته وتدريبه « لا يقبل أن يأتى عملا نكرا أو وحشيا (١٧٦) » ان ما تشكل لديه من ذوق طيب لا بد أن يوجهه فى السلوك وفى الفن معا . والحق أيضا لون من الجمال فهو تناسق أجزاء المعرفة مع الكل . ومن هنا نحا شافتسبرى نحو الكلاسيكية فى الفن . وبدأ له الشكل والوحدة والتناسق أساسيات التفوق فى الشعر والعمارة والنحت ، وهى أقل ضرورة وامتيازا فى الرسم بالألوان منها فى الرسم العادى . وكان فى العصر الحديث أول من جعل الجمال مسألة أساسية فى الفلسفة ، وهو الذى بدأ البحث الذى بلغ ذروته ، فى أواخر القرن الثامن عشر بلورد كامس وبيرك .

كان هذا جانبا من تأثير شافتسبرى ، وهناك جوانب أخرى كثيرة . ان توكيده على الواجدان أثر على الحركة الرومانتيكية ، وبخاصة فى المانيا ، عن طريق لسنج وشيلر وجوته وهردر - الذين أسموه « أفلاطون أوربا المحبوب (١٧٧) » وظهر هذا الأثر فى فرنسا فى ديدرو كما ظهر فى روسو . أما تفسيره للدين بأنه ضعيف من الناحية النظرية ، ولكنه أمر لا يستغنى عنه من الناحية الاخلاقية ، فقد كان له أثره فى أفكار كانت العملية . ظهر توكيده على التعاطف مرة ثانية باعتباره أساس الأخلاق ، عند هيوم وآدم سميث . وأسهمت أفكاره عن الفن فى تشكيل نشوة ونكلمان الأصيلة الممتازة . انه بدأ حياته تلميذا لجون لوك المفكر والذى لم يعن كثيرا بالجماليات فأصبح (وربما بحكم المقاومة الطبيعية فى كل جيل لمنشئه) فيلسوف الوجدان والعاطفة

والجمال • وحيث كان يحب الأسلوب الكلاسيكى فى الفن ، فقد أصبح مصدر احياء الرومانتيكية فى قارة أوربا ، ولو أن الشعر والعمارة فى انجلترا تبعتا نزعته الكلاسيكية • وكان له كل الفضل والفخر فى أنه جعل الفلسفة تشرق برقة الأسلوب ورشاقته مما أعاد الى الذاكرة أفلاطون ، ولم ينافسه فى هذا بعد ذلك الا باركلى •

٧ ـ جورج باركلى : ١٦٨٥ ـ ١٧٥٣ :

ولد فى ديرت كاسل فى مقاطعة كيلكنى • وفى سن الخامسة عشرة التحق بكلية ترنتى فى دبلن • وفى سن العشرين أسس ناديا لدراسة « الفلسفة الجديدة » ، ويقصد بها لوك • وفى الحادية والعشرين بدأ فى « الكتاب العادى » وتلك فكرة كان يؤمل من ورائها أن يقضي على « المادية » الى الأبد : أى أنه ليس ثمة شيء موجود الا اذا كان مدركا بالحواس ، ومن ثم فان العقل هو الحقيقة الواقعة ، والمادة أسطورة أو خرافة :

> كما كان مذهب المادة أو الجوهر المادى ، السند والدعامة الاساسيتين للتشكك ، فانه على نفس الركيزة أقيمت المبادىء البعيدة عن التقى والورع فى الالحاد والمروق عن الدين •• وكم كان الجوهر المادى صديقا حميما للملحدين فى كل العصور ، ممن لسنا فى حاجة لذكرهم • ان كل نظمهم الرهيبة البشعة تعتمد عليه اعتمادا سافرا أساسيا ، حتى اذا ما انهارت يوما هذه الركيزة ، أو حجر الزاوية فى مذهبهم ، فان كل الكيان لم يلبث أن انهار ، مما لا يستحق معه أن نلقى نظرة خاصة الى حماقات كل شيعة من هؤلاء الملحدين (١٧٨) •

وهكذا فى السنين السبع التالية ، وقبل أن يتم التاسعة والعشرين اصدر باركلى أهم أعماله : « بحث عن نظرية جديدة للرؤية » (١٧٠٩) ، رسالة عن أصول العقل البشرى (١٧١٠) ، « ثلاث محاورات بين هيلاسي وفيلونوس فى معارضة المتشككين والملحدين » (١٧١٣) • وكانت الرسالة الأولى اضافة رائعة الى علم النفس والبصريات ، كما هزت الرسالتان الأخيرتان الفلسفة من الأعماق •

ونبعث رسالة الرؤية من قطعة لجون لوك يروى فيها كيف أن وليم مولينكس (مدرس فى كلية ترنتى ، دبلن) أثار أمامه مسألة : هل يستطيع انسان ولد أعمى ، أن يميز بعد استرداد بصره ، بالبصر وحده ، بين جسم كروى وآخر مكعب اذا كان كلاهما من نفس المادة وفى نفس الحجم ٠ واتفق رأى مولينكس ولوك سلبا ٠ واتفق باركلى معهما وأضاف تحليله الخاص ٠ ان البصر لا يهيىء لنا ادراكا حسيا للبعد والحجم والمواقع أو الحركات النسبية للأجسام ، الا بعد التصحيحات التى تجريها حاسة اللمس ، وعن طريق التجارب المتكررة يصبح هذا التصحيح لحظيا تقريبا ، وعند ئذ يزودنا البصر بمثل هذا الحكم على شكل الأجسام المرئية وبعدها ومكانها وحركتها ، كما لو أننا لمسناها :

> ان الانسان الذى ولد أعمى ، ثم أعيد اليه بصره ، لن يكون لديه فى أول الأمر أية فكرة عن البعد عن طريق البصر ، فان الشمس والنجوم ، وأبعد الاجسام وأقربها على حد سواء ، تبدو فى عينه ، لا بل فى عقله ، فالأجسام التى تدخل عن طريق البصر ، لا تبدو له (كما هى فى الحقيقة) الا مجرد طائفة جديدة من الأفكار والأحاسيس ، كل منها قريب الاحساس بالألم و اللذة أو أشد الأحاسيس الداخلية فى النفس ٠٠ أما حكمنا على الأجسام المدركة بالبصر ، على أى بعد ، أو بدون العقل ، فانه حكم مبنى تماما على التجربة (١٨٠) ٠

فالفضاء حينئذ تركيب عقلى ، انه أسلوب للعلاقات التى تبنى عن طريق الخبرة للتوفيق بين مدركاتنا بالبصر وباللمس ٠ وأكدت العمليات التى وردت فى تقارير الجمعية الملكية (١٧٠٩ - ١٧٢٨) وجهة النظر هذه : فان فردا مولودا أعمى ، أعيد اليه بصره عن طريق جراحة أجريت له ، كان فى أول الأمر « أبعد ما يكون عن الحكم على الأبعاد ، الى حد أنه ظن أن كل الأجسام أيا كانت لمست عينيه ٠٠٠ ولم يدرك شكل أى شيء ، ولم يميز بين الأشياء ، مهما اختلفت فى الشكل أو الحجم (١٨١) » ٠

وكان كتاب « أصول المعرفة الانسانية » نتاجا رائعا جديرا بالذكر

الفتى فى الخامسة والعشرين . ومرة أخرى تعرض باركلى لمقال لوك .
اذا كانت كل المعرفة تأتى عن طريق الحواس ، وليس ثمة شي له حقيقة واقعة لدينا الا اذا كنا ندركه أو قد أدركناه ادراكا حسيا ، « موجود أى أنه مدرك » . وكان لوك قد ذهب الى أن المدركات قد أحدثتها أشياء خارجية تضغط على أعضاء الحس فينا . وهنا تساءل باركلى : كيف تعرف أن مثل هذه الأشياء (الخارجية) موجودة ؟ ألسنا نرى فى أحلامنا أفكارا واضحة مشرقة . وضوح واشراق ما نراه منها فى اليقظة.
ان لوك حاول أن ينقذ استقلال الحقيقة الواقعة للأشياء بالتمييز بين صفاتها الأولية والثانوية ، فهذه الأخيرة ذاتية « فى العقل » ، والصفات الأخرى ـ الامتداد ، الصلابة ، الشكل ، العدد ، الحركة ، السكون ـ موضوعية ، توجد فى جوهر خفى غامض اعترف لوك بأنه لا يعرف عنه شيئا ، ولكنه ، هو والعالم بأسره ، جعلوه « والمادة » شيئا واحدا .
والآن أعلن باركلى أن الصفات الأولية ذاتية مثل الثانوية تماما ، وأننا لا نعرف امتداد الاشياء وصلابتها وشكلها وعددها وحركتها وسكونها ، الا عن طريق الادراك الحسي ، وأن الصفات الاولية ، بناء على ذلك ، ذاتية أيضا ، أى أنها أفكار . والعالم بالنسبة لنا طائفة من المدركات الحسية ، « ان العقل هو الذى يشكل هذه المجموعة المتنوعة من الأجسام التى يتألف منها العالم المرئى ، ولا يتأتى لأى منها أن يكون موجودا لفترة أطول مما هو مدرك (١٨٢) انزع عن « المادة » صفاتها الأولية والثانوية معا ، تصبح المادة عدما لا معنى له . وعندئذ يترك « المادى » ليلعق عدما (١٨٣) .

وكان باركلى على وعى تام بأن آخرين ، فضلا عن الماديين قد يعترضون على تبخر العالم الخارجى بمثل هذه البراعة الخادعة .
ولم يعجز عن الرد حين سئل : هل يتوقف وجود أثاث المنزل فى حجراتنا اذا لم يوجد فيها من يدركه أو يراه (١٨٤) . انه لم ينكر حقيقة عالم خارجى لمدركاتنا (١٨٥) ، وكل ما أنكره هو « مادية » العالم . ويمكن أن تستمر الأشياء الخارجية موجودة ولو لم ندركها أو نرها ، وما ذاك الا لأنها موجودة باعتبارها مدركات فى عقل الله (١٨٦) ، واستطرد يقول ان احساساتنا فى الحقيقة تسببها ، لا المادة الخارجية ، بل القوة الالهية التى تؤثر فى حواسنا . والروح

فقط هى التى تؤثر فى الروح • والله هو المصدر الوحيد لكل أحاسيسنا وأفكارنا (١٨٧) × •

وذهب معاصرو باركلى الى أن هذا لهو ايرلنـدى ، وكتب لورد تشسترفيلد الى ابنه : —

ان دكتور باركلى الرجل الفاضل العبقرى العالم ، ألف كتابا ليثبت أنه ليس هناك شيء مما يسمونه المـادة ، وأنه لا يوجد شيء الا فكرة ••• وحججه مفحمـة ، بكل معنى الكلمة ، ولكنى أبعد ما أكون عن الاقتناع بها ، الى حد أنى مصمم على أن آكل وأشرب وأمشي وأركب ، حتى أحفظ تلك « المادة » التى أتصور خطـأ ، فى الوقت الحاضر ، أن جسمى يتكون منها ، على أحسن حالة ممكنة (١٨٨) •

وكل العالم يعرف ما بذل دكتور جونسون من جهد عظيم فى الرد على دكتور باركلى :

يقول :وزول : بعد خروجنا من الكنيسة ، وقفنا لبعض الوقت معا نتحدث عن سفسطة الأسقف باركلى أو مغالطته البارعة لاثبات عدم وجود المادة ، وأن كل شيء فى الكون مجرد أفكار ، ولاحظت أنه على الرغم من أننا قانعـون بأنها غير صحيحة ، فانه من المتعذر دحضـها • وان أنسي لن أنسي اندفاع جونسون فى الرد ، وهو يضرب بقدمه وبقوة شديدة حجرا كبيرا حتى أزاحه فارتد وسمع له صـوت ، وقال : « انى أدحضها هكذا (١٨٩) » •

وربما كان من الجائر بطبيعة الحال أن يوضح باركلى للرجـل العظيم (دكتور جونسون) أن كل ما عرف عن الحجر ، بما فى ذلك الألم الذى أصاب اصبع قدمه ، كان ذاتيا : مجموعة من المدركات الحسية تسمى حجرا ، مختلطة مع طائفة أخرى من الأحاسيس السمعية تسمى بوزول ، ومجموعة من الأفكار التى تعلمتها والتى أشرب بها تسـمى

× فى أحدث فيزياء ، ان أحاسيسنا لا تسببها أية « مادية » معـروفة ، ولكن تسببها طاقات دقيقة ، جوهرها المادى غير معروف • وهو افتراضي •

obeikandl.com

فلسفة ، ولدت كلها استجابة أنتجت طائفة أخـــرى من الاحاسيس ٠ واتفق هيوم مع بوزول وتشسترفيلد فى أن حجج باركلى « لا تدع مجالا لأى رد ، ولا تؤدى الى اقتناع » (١٩٠) ٠

ورأى هيوم أن لغز باركلى ساحر ، ولكنه استخلص منه نتيجة مدمرة ٠ وسلم بان « المادة » تتلاشي عندما نسلبها صفاتها التى تنسبها اليها مدركاتنا الحسية ؛ ولكنــه أوحى بأن نفس الشيء قد يقـــال عن « العقل » ٠ ولقد رأينا عرض لوك المسبق لهذه النقطة ٠ لكن باركلى تنبأ بها أيضا ٠ فانه فى المحاورة الثالثـــة جعـــل هيلاس يتحـــدى فيلونوس :

> أنت تعترف ، حقـــا بأنك ليس لديك أية فكرة عن نفسك ٠٠ ٠٠ وتسلم مع ذلك بأن هناك جوهرا روحيا ، وعلى الرغم من أنه ليس لديك أية فكرة عنه ، بينما تنكر امكان وجود جوهر مادى ، لانه ليس لديك أى مفهوم أو فكرة عنه ٠ فهل هذا من الانصاف فى شيء ؟ ٠٠ ٠٠ أما أنا فيبدو لى ، طبقا لطريقة تفكيرك ، وبناء على مبادئك، أن هذا يستتبع أنك مجرد جهاز من أفكار عائمـــة ، دون جوهر يساندها ٠ ان الكلمات لا يمكن استخدامها دون معنى وحيث أنه ليس فى الجوهر الروحى معنى أكثر مما هو فى الجوهر المادى ، فيجب تسفيه كليهما سواء بسواء (١٩١)
> ويرد فيلونوس (نصير العقل) على هيلاس (الذى يمثل المادة) :

> كم من مرة يجب أن أعيد وأكرر انى اعرف او انى اعى وجودى وجوهرى ، وأنى أنا نفسي ، لا أفكارى ، بل شيء آخر عنصر مفكر فعال يدرك بالحواس ، ويعرف ، ويريد ، ويعمل حول الأفكار ٠ أنا أعرف أنى بالذات ، ادرك الألوان والأصوات ، وأن اللون لا يدرك الصوت ، ولا الصوت يدرك اللـــون ، وأنى لذلك عنصر فـــرد ، متميـــز عن اللـــون والصوت (١٩٢) ٠

ولم يقتنع هيوم بهذا الجواب ، وانتهى الى أن باركلى ، طوعا

أو كرها ، دمر المادة والروح كلتيهما ، وأن كتابات الأسقف اللامع الذى تطلع الى الدفاع عن الدين ، « تشكل أحسن دروس التشكك التى يمكن العثور عليها عند الفلاسفة القدامى والمحدثين على حد ســـواء ، دون استثناء بيل (١٩٣) »٠

وعمر باركلى أربعين عاما بعد نشر رسائله الثلاث ٠ وفى ١٧٢٤ عين رئيسا لكاتدرائية درى ٠ وفى ١٧٢٨ أبحر ، بناء على وعـــد من الحكومة بامداده بمعونة مالية ، الى برمودا لينشيء فيها كلية « لتقويم عادات الانجليز فى مزارعنا فى الغرب ـ المستعمرات ـ ، ونشر الانجيل بين الأمريكيين الهمجيين (١٩٤) ٠ ووصل الى نيوبورت فى رود أيلند ينتظر ورود المنحة الموعودة وقدرها عشرون ألفا من الجنيهات التى لم يصل منها شيء ٠ وهناك ألف كتاب « الفيلسوف الصغير » ليضع حدا لكل الشكوك الدينية ٠ وترك بصماته على ذهن جوناثان ادواردز ، وكتب بيتا مشهورا « ان الامبراطورية تشق طريقها غربا » ٠ وبعد ثلاث سنوات من توقعات لا طائل تحتها عاد الى انجلترا ٠ وفى ١٧٣٤ عين أسقفا فى كلوين ٠ وقد رأينا كيف أن فانيسا صديقة سويفت جعلته أحد منفـــذى وصيتها وتركت له نصف ثروتها ٠ وفى ١٧٤٤ نشر رسالة غريبة « مزايا ماء القطران » الذى قدمه اليه هؤلاء الهمجيون الذين سبق ذكرهم ، والذى أوصي به الآن علاجا للجدرى ٠ وقضي نحبه فى أكســـفورد فى ١٧٥٣ بعد حياة دامت ثمانية وستين عاما ٠

ولم يبزه أحد فى اثبات عدم واقعية الواقع ٠ وفى جهوده لاستعادة الايمان الدينى وتطهير البلاد من مادية هوبز التى كانت تلوث انجلترا وتفسدها ، قلب الفلسفة رأسا على عقب ، وجعل « كل طبقات السماء وكل ما على الأرض ٠٠ ٠٠ كل تلك الأجسام التى تؤلف هيكل الجبار للعالم بأسره (١٩٥) » ، موجودة بالنسبة للانسان ، باعتبارها مجرد أفكار فى عقله ٠ وكانت مغامرة محفوفة بالمخاطر ، وربما ارتاع باركلى نفسه اذا وجد هيوم وكانت يقتبسان من مبادئه التقية الورعة نقدا للعقل لم يترك أية تعاليم أساسية فى صرح الديانة المسيحية العريقـــة الحبيبة الا زعزع أركانها ٠ اننا لنعجب بدقة نسيج العنكبوت الذى جاء به ، ونسلم بأنه منذ أفلاطون لم يكتب أحد مثل هذا الهراء الخلاب ٠ وسنرى أثره فى كل مكان فى بريطانيا وألمانيا فى القرن الثامن عشر ، وكان الأثر أقـــل فى

فرنسا ، ولكنه تعاظم فى تعويذة نظرية المعرفة غير المفهومة عند أتباع كانت فى القرن التاسع عشر · وحتى فى يومنا هذا لم تقررا لفلسفة الأوربية بعد قرارا حاسما وجود العالم الخارجى · وحتى توطن هذه الفلسفة نفسها على أقصي احتمال فى هذا المجال ، وتواجه مشاكل الحياة والموت ، فان العالم سوف يغفلها ويتغاضي عنها ·

ان هذه الفترة كانت فى حقيقتها أزهى فترات الفلسفة الانجليزية · ان الناقوس الذى كان فرانسيس بيكون قد دقه لدعوة المفكرين للعمل بعضهم مع بعض ، كان قد سمع بعد أن خمد أوار الحرب الأهلية · وكان هوبز جسرا فوق هذا الفراغ الغبى ، وكان نيوتن الرافعة التى حرك عليها نيوتن اللاهوت · وكان لوك القمة التى تحدرت منها مسائل الفلسفة الحديثة فى رؤية صافية واضحة · ومن هذا الرباعى الانجليزى الذى سرعان ما أغراه هيوم الحكيم الغريب بالاثم ، دخل الى فرنسا وألمانيا تأثير قوى · ولم يكن المفكرون الفرنسيون فى تلك الفترة على نفس القدر من العمق والأصالة مثل الانجليز ، ولكنهم أكثر لمعانا واشراقا ، من ناحية لأنهم « غاليون » ، ومن ناحية أخرى لأن الرقابة الأشد صرامة أرغمتهم على أفراغ همهم فى الشكل ، ووضع حكمتهم فى الرقة والظرف · ثم جاء فولتير الى انجلترا ١٧٢٦ ، فلما عاد حمل فى جعبته أفكار نيوتن ولوك وبيكون وهوبز وغيرها من المهربات ، واستخدمت فرنسا لمدة نصف قرن بعد ذلك علم انجلترا وفلسفتها أسلحة لتمحو ضلالة الخرافة والغموض والجهل · ان قابلة انجليزية سهرت على ولادة الاستنارة الفرنسية ·